

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

- نحو عالمنا الذاتي - صبح الله محمدين
- مناجاة قلب كسير - أ.د. محمد سعيد ومطابق الجبوتي
- فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر - أ.د. محمد حمادة
- كيف يتفلسف الكون؟ - أ.د. زطلول السحار
- مكة - أ.د. حسن الأملاني



صدورنا بستان، للشفقة والتحنان. نقطف منها الباقات ونُهديها للإنسان في كل مكان.
هلم يا إنسان! بمزهرف إنسانيتك لناشذك! افتح لنا الطريق لنسخطي العقبات ونستقل الأجواء
ونقطع الأمداء، بروحنا الحنون وجناحنا الرفاف بالظل والأشواق...!

المحتويات

٢	نحو عالمنا الذاتي / فتح الله گولن.....
٥	لغة العرب أم لغة القرآن / أ.د. خالد الصمدي.....
٨	همس الورود / د. سعاد الناصر.....
٩	كيف يتنفس الكون؟ / أ.د. زغلول النجار.....
١٢	الأستاذ النورسي والبعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكريم / أ.د. عماد الدين خليل.....
١٧	جمالية العمارة في الثقافة الإسلامية / أ. د. بركات محمد مراد.....
٢١	طوبى / نبيلة الخطيب.....
٢٢	حضارتنا الإسلامية... من المرض إلى النهضة / أ.د. عبد الحليم عويس.....
٢٦	مكة / أ.د. حسن الأمرائي.....
٢٧	مناجاة قلب كسير / أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي.....
٣٠	درويش في بلاد "الأناضول" / أديب إبراهيم الدباغ.....
٣٢	مراكز النشاط الاقتصادي في الدولة العثمانية / د. ناظم إيتبه.....
٣٦	فلسفة العمر / أ.د. فريد الأنصاري.....
٤٠	أنا معدة عبد الله / أ.د. عرفان يلماز.....
٤٤	أعراض الوحي المنزل على ذات النبي الميجل: محمد ﷺ / د. رايح المغراوي.....
٤٧	الفروق الجنسية في العملية التربوية/ شمس الدين بولات.....
٥١	شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية / د. عماد عحوة.....
٥٤	فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي / أ.د. محمد عمارة.....
٥٩	الثالثة إلا عشر دقائق / محمد ساجد أرواسي.....
٦٢	الانتصار الأخير / عمر فاروق كولدرن.....
٦٤	واحة القراء.....

تجوه عالمنا المتنازع

فتح الله گولن

العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالمنا ودنيانا نحن. إن عالمنا هذا -بعد أن عانى على مدى قرون من أزمات وزلازل مديدة- ما زال قادراً -رغم كل شيء- على تحقيق تكوين في الحاضر من جديد؛ وما برح يحمل في كيانه قوة كامنة للانبعاث من جديد؛ ولديه من تراكم وخزين معرفي وخبرة حضارية ما يؤهله لإرشاد ما حوله من التكونات الجديدة؛ ومن جانب آخر إن قيادته للأمم أماداً مديدة تركت فرصاً مكتسبة

لقد تكرر الكلام كثيراً عن دعاوي البناء من جديد في عهود وأزمان متعددة وبقاع متنوعة من الأرض ويعناوين مختلفة. ولكن يبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد ومفتوحاً للنقاش في كل وقت. إلا أن هنالك عالماً يوفي عملية البناء حقها... بتناول واحتضان الوجود وما وراء ستار الوجود، والإنسان والحياة جميعاً، عالماً حرّاً وطيلاً من كل القيود المذكورة آنفاً. ولا ريب أن هذا

ل



من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة له منذ الزمن الغابر، وعالمنا هو مقتدر على استعمالها اليوم. أجل، إنه جاهر تمامًا بالقيام بدوره، لكن عليه أن يستعمل بشكل صحيح وسليم مرة أخرى المحركات التاريخية التي تُعدّ دمّ هذا الماضي العظيم العريق ولحمه.

كان عالمنا يسبق عصره بخطوات واسعة في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجماليات، وفي كل مجال ومضمار، بدءاً من نشوا الوجود كالأورزمي والبيروني وابن سينا والزهرائي؛ وبأساتذة الفقه والحقوق كأبي حنيفة والإمام محمد والسرخسي والمرغيناني؛ وبذوي استعدادات اجتازت المعايير الإنسانية وعاشوا في محور الوجدان بتغليب مزيج القلب والمنطق على المنطق الصرف كالإمام الغزالي والرازي ومولانا جلال الدين الرومي والشاه النقشبند؛ وبأبطال المحاكمة والفتنة كالإمام الماتريدي والفتازاني والجرجاني والدواني؛ وبعمالقة الفن كالمعمار خير الدين والمعمار سنان وعطري وديده أفندي.. إن هذا العالم يُمكنه -بعد هذه الفترة العابرة- أن يحرك مجدداً كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة.

أجل، إن عالمنا هذا يستطيع أن يفتح صفحة جديدة بالتوصل إلى تفسير جديد للكون من خلال الإحساس بالروح الإسلامي ومعناه؛ وإلى فكر ماورائي عالمي (كوني) من خلال الأجواء العميقة والربانية للتصوف؛ وإلى التيقظ والتمكين اللذين يكسبان الإنسان قيمة فوق القيم، من خلال المحاسبة والمراقبة الإسلامية؛ وإلى جمالية تتقبلها وتبنّاها الجماهير، من خلال المدن وتخطيطها بحيث نتمكن نحن عبرها من التعبير عما بدواخلنا ويتمكن غيرنا من فهم ما أودعنا فيها من المشاعر؛ وإلى أذواق بديعية حقيقية أصبحت أخروية ولطيفة ومتّحدة بعالم الماوراء، من خلال الفن الذي ينقش في كل مكان الروح والمعنى، ويتحرى في نقشه عن اللاهائي. نعم، يستطيع عالمنا أن يفتح هذه الصفحة الجديدة، على الرغم من أنه يبدو عملاً غير يسير.

التحلية والتحية

نعم، إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع

التصورات والأفكار المنحرفة السائدة في أراضينا منذ سنين وسنين، مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل معانينا الدينية؛ ووضع الأقفال على ألسنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تماماً، ولجوء المثقفين المفكرين والدارسين إلى المادية الوضعية الكثيفة وانحباسهم فيها، وإحلال التعصب والتنطع محل الصلابة والثبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة، بل الإفادة بأن بلوغ برّ الأمان عسير غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انحرافنا وانحلالنا الحقيقية، مثل الحرص والكسل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، وما لم نتوجّه إلى الحق بما يُعدّ جوهر الإسلام وحقيقته كالاستغناء والجسارة ونكران الذات والاهتمام بهمّ الآخر والروحانية والربانية، وما لم نُصَفْ بمشاعر الحق ونصّب في قلبه... لكن العسر الشديد لا يعني الخال. فما لم تَحُل الساحة -وهي ليست خالية فعلاً- من شجعان مالكين لإرادة تجديدية تحتضن العصر، مع الحفاظ على الجوهر واللب، فسيتحقق -لا شك- هذا التجدد والتغيّر... تجدد وتغير ذو أبعاد قرآنية وسجاية فطرية... سيتحقق هذا بحيث يعجز عن ممانعته الجموع المنغلقة تجاه هذا التصور والمصرة على هذا الانغلاق، تعجزهم عن صد التيار.

أرواح عظيمة ونهضات عظيمة

فإن النهضات العالمية التي عرفناها وعلمنا بها حتى اليوم، كانت ثمرة سعي الدماء الفردي، لا حملات الكتل البشرية وحركاتها... فقد كانت التجديدات والتغيرات التي بلغت حد الانفجار أحياناً في السنوات المتعاقبة بعد ظهور الإسلام، من آثار عدد قليل من الأرواح الفذة والعقول الذكية الاستثنائية والأفكار الممتازة التي سمقت في العهد الأموي والعباسي، كما كانت هذه الفكرة الواسعة والروح العميقة والفترة البراقة خلف التحرك والتكوين المنبعث عن المركز في العهد الإيلخاني والقره خاني والسلجوقي والعثماني. إن المسلك الذي افتتحه هؤلاء الرواد



الذين ظهروا بمعنوية عالية في كل مرحلة من المراحل، تحوّل بعد لأي ومدة إلى مدارس وتيارات تنفخ روح البناء من جديد في الكتل البشرية. فتابع من سار خلفهم طريق أولئك الأرواح المرشدة وتعبوا درب أفكارهم، وانحشرت الحشود على أثرهم، ولجأوا إلى إقليمهم الوضاء. فعاش هؤلاء المرشدون العظام مع الحشود وكأنهم الروح والدم منهم. أما في مراحل أقول الأدمغة العظيمة السامقة هذه، وغياب من يسد فراغهم من بعدهم، فإن الذهول وتفحم الفكر وعقم التجديد أصاب المجتمع بكل أصنافه وطبقاته، وأصبح التجدد من قبيل المستحيلات.

وفي هذه الأثناء، إذ تتحول الأيام إلى الربيع، ويتبع الفجر فجر، ينتعش أملنا وانتظارنا، فدعونا ربنا تعالى أن يهبنا إرادة مؤيدة بالمشيئة تعيننا في إقامة صرح روحنا، وجعل قلوبنا خضراء كبروع الجنة، والسمو بقلوبنا إلى فهم أسرار حرم الألوهية، وأن يلهم أمتنا طريق التجدد في خط السير الحمدي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الآمل المشرق

إن سعيها لتحقيق هذا الأمل وانتظارنا له هو حقنا وواجبنا ومقتضى إيماننا. ولكن من اللازم علينا أثناء استعمال هذا الحق والإيفاء بهذا الواجب أن نراجع ماضيها المجيد باستمرار، ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاحراً بالعظمة. فعندما حقق الغرب نهضة كهذه في مسيره نحو المدنية الحاضرة، التجأ إلى المسيحية واتخذ اليونانية مثلاً وتزوج مع الرومانية القديمة. نرى أشباه هذه الأسس في الحضارات الأخرى في كل زمان. إذن سنلجأ نحن أيضاً إلى ماضيها وجذور معانيها ونقتبس من مثلنا الروحية التي لم يتكرر صفاؤها بتعاقب الزمان. وسنأخذ من إبداعات عصورنا البيضاء التي نراها الفصول الزمنية الذهبية ومصدر فخرنا الأبدي، من الفكر الفلسفي إلى الحقيقة الصوفية، ومن طبيعة متلقيات الدين المستقرة إلى بعده الأخلاقي... وسنزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تسربل المستقبل. في هذه النقوش يتجاور "مولانا جلال الدين الرومي" مع "التفازلي"، ويسجد "يونس امرأة" مع "مخدوم قولي"، ويضم "فضولي" إلى صدره "محمد عاكف". ويقف "الأمير أولوغ" تحية لـ "أبي حنيفة"،

ويجلس "الخواجة الدهاني" قبالة "الإمام الغزالي"، ويلقي "ابن عربي" ورده على "ابن سينا"، ويفيض "الإمام الرباني السهرندي" ببشرى "بديع الزمان النورسي"... يتوحد عمالقة الأفكار لهذا الماضي العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمسون في آذاننا طلاس الخلاص والانبعاث.

المأمول أن نكتشف الشعور والفكر والمنهج والفلسفة التي تجمع كل هذه، وأن نجد أسلوينا السماوي والخالد. من أجل ذلك، أرى - قبل كل شيء - أن نعيد النظر في طرقنا التي نسلوها، وأن نبجد إعمارها.

فمن الأسس المهمة لنهضتنا: إلهام العشق والشوق وبركتيهما؛ ومتانة "العقل والمنطق" ورصانتها اللتان تبعثان الأمان؛ واستقرار وإنسانية الحرية والعودة إلى الذات؛ والبعد التجريدي والعمق والدقة، ومحور المنطق، وروح الوحي في فننا وفلسفتنا.

محركات الانبعاث

وفي الطريق نحو هذا التجدد، جعل رضا الله غاية الآمال، وتفضيل الروح على البدن، وجعل النفس تحت إمرة القلب؛ محركاً أساسياً لتفعيل مشاعر الشعور بالواجب.. وحب إنساننا وأوطاننا حرصاً لا يستغنى عنه.. والأخلاقية زاد حيوي في المسير لا يترك أبداً.. والكائنات والإنسان والحياة: كتابٌ مخوفٌ بالأسرار لا يكف عن نبشه بمختلف أبوابه وفصوله تحت منشور القرآن البلوري.. والإنسان بسجايه وقيمه البشرية الحقيقية مصدر مهم للقوة.. وكون الطرق الموصلة إلى الهدف والغاية - متناسلاً مع حقائتيهما ومقدسيتيهما - في محور القرآن والسنة، ضماناً للثبات على النهج الصحيح.

وإن أموراً يمكن أن نسميها بوصفة طيبة لخلاصنا، مثل: أن نهتم بمستقبل وطننا وإنساننا، ونجهد في تغيير مصيرنا الذي ساء منذ قرون، ونحيي أجسادنا بالروح الذي يهدف عجن مجتمعا وتشكيله، ونفتح صفحة تاريخية نقية لأمتنا... هي شيء من الأسس لحضارة ورؤيا تجديدية تفوق المدن الفاضلة. وسنعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل في فصل يأتي. ■

(٥) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



لغة العرب أم لغة القرآن

د. خالد الصدي*

نقر في ليلة من ليالي الندوة نقرات خفيفة على باب غرفة الدكتور فاروق حمادة بالفندق في غسق الليل، سائلا عن طريقة الدخول في الإسلام، وبقي الرجل مشدوها أمام بساطة الإجراءات التي لا تتعدى غسلا مسنونا والنطق بالشهادتين، وفي فرح طفولي سارع الشيخ إلى غرفته ولم يغمض له جفن ليلتها فرحا بعد أن نطق بالشهادتين، واختار لنفسه من الأسماء "البشير" وبات ليلته الأولى مسلما عن اقتناع، وكان أن زف الخبر للحاضرين صباحا في الجلسة العلمية الأولى من اليوم الثالث للندوة، تحت أصوات مكبرة وحالات من التأثر والفرح ظاهرة.

أما الموقف الثاني فقد جرى بأقاصي بلاد الله بعاصمة دولة "قرغيزستان" سنة ١٩٩٧ وفي مسجد عظيم البناء والزخرفة بالعاصمة "بيشكك". هذا البلد (لمن لا يعرفه) ذو أغلبية مسلمة بني أهله ألف مسجد في جميع أنحاء البلاد في ظرف خمس سنوات من الاستقلال، بعد أن كان الشيوعيون قبل الاستقلال لا يسمحون ببناء أي مسجد جديد، بل ولا يسمحون حتى بترميم

أربعة مواقف متباعدة في الزمان والمكان وحَدَّثها الفكرة والعبرة، وشكلت صورة مكتملة تسمح باستنتاجات وخلاصات جيدة تستند إلى واقع الممارسة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بالعربية من طرف مدرّسي وموجهي هذه المادة في البلاد غير العربية، كما تستند إلى معاشية ميدانية في دورات تدريبية أُقيمت ببعض هذه البلدان.

أول هذه المواقف ذاك المشهد الرائع الذي لن ينساه طلبة كلية الآداب بتطوان بالمملكة المغربية سنة ١٩٩٣ حين أعلن مستشرق روماني حاوز السبعين من عمره إسلامه بمدرج العلامة "عبد الله كنون" مقتنعا بعظمة القرآن الكريم، وهو الذي اشتغل به وعائشه ثلاثين سنة يحاول ترجمته، وأقرّ في نهاية الأمر أن ذلك مستحيل، معززا استنتاجه بشواهد علمية. وقد استمع إلى نتائج وخلاصات جهوده، وخلاصات جهود أكثر من عشرين باحثا ومترجما شاركوا في الندوة الدولية في موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم التي نظمت بالكلية، وانتهى التفكير بالرجل إلى أن

القائم منها والذي أصبح آيلاً للسقوط. وسمعتُ من ابن مفتي البلد وقتها أنَّ السلطات كانت تمنع من يقل سنه عن الأربعين من الذهاب إلى صلاة الجمعة، وكان ابن المفتي وبعض من صحبه يتسللون إلى المسجد في غسق الليل ليأخذوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية عن الإمام الذي لم يكن سوى أبيه المفتي الذي أصبح اليوم طاعنا في السن.

شرفني هذا الابن وبحضور أبيه شاهد العصر، الحاضر بين المصلين في مكان خاص به، بإلقاء كلمة في المصلين قبل خطبة الجمعة، فسرت بذلك، والتزم فضيلته بالترجمة، وما إن شرعت في حمد الله والصلاة على محمد بن عبد الله ﷺ باللغة العربية حتى فوجئت بعشرات العيون تذرف الدموع، ولما أتممت كلمتي سألت فضيلة المفتي عن سر ذلك فقال لي: "إن هؤلاء حين يسمعون أحداً يتكلم اللغة العربية فإن أعينهم لا ترى فيه إلا صحابيا جليلاً قدم للتو من أرض الرسالة، وربما يتخيلون من فرط الشوق أن يده لامست يد رسول الله ﷺ". ثم أردف قائلاً: "ثم إنهم يقولون إنكم معشر العرب إن لم تقوموا بواجبكم في نشر الإسلام ليعذبكم الله تعالى مرتين، أولاً لأنكم موقنون برسول بعث منكم وبين أحضانكم، والثانية لأنكم تقرأون القرآن بلغته التي أنزل بها وبدون واسطة وهو ما يتيح لكم فهمه وتدبره حين يحرمون هم من ذلك".

وقد تركتُ بهذا البلد رجلاً مسلماً متقاعدًا من الجيش الروسي اشتغل مستشاراً عسكرياً في سوريا في السبعينات، ويدرس اللغة العربية ساعتهما بجامعة قرغيزستان، يشتغل بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة القرغيزية، وأهداني مشكوراً جزءاً من هذا العمل، ولست أدري هل أتمه أم لا، وكل رجائه أن تسارع منظمة إسلامية إلى طبع عمله عند الانتهاء منه، أسأل الله تعالى أن يحقق أمله.

أما الموقف الثالث فهو حضوري حلقة نقاش علمي عالي المستوى بين علماء الفقه والشرعية والحديث والقرآن الكريم بـ"داكا" عاصمة "بنغلادش"، المشاركون في الدورة التدريبية الوطنية في بناء مناهج التربية الإسلامية التي تعقدها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو"، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية في الفترة الممتدة سنة ٢٠٠٤. وقد تركز النقاش في موضوع شائك يقول: ما الأكثر فائدة في التعامل مع القرآن الكريم في البلدان غير الناطقة بالعربية؟ هل ترجمته إلى لغة البلد؟

أم تعلم اللغة العربية؟ وأجمع المشاركون بعد نقاش مستفيض إلى أن المسلك الرشيد هو تعلم اللغة العربية لأنها لغة الوحي، ورغم أن المسألة مكلفة جهداً، وبطيئة وقتاً إلا أنها في نظرهم أبقى أثراً، دون إنكار فائدة الترجمة لكنها دون الخيار الأول أهمية.

أما الموقف الرابع فهو حالة الانتظار القاسي الذي فصل بيني وبين زميلي الدكتور رشدي طعيمة خبير تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بباب الجامعة، حين كنا في زيارة علمية للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سنة ٢٠٠٤، الذي استأذني في زيارة خاطفة لأحد الأساتذة الباحثين المصريين في قسم اللغة العربية بالجامعة، وبعد طول انتظار قررت الانطلاق في رحلة البحث عن هذا القسم، وبجهد جهيد في ردهات وبنيات الجامعة الزرقاء المترامية الأطراف وسط غابة استوائية، وفي ظل جهلي باللغة الإنجليزية أو المالوية لغتي التخاطب بالجامعة، واختلاط الجنسيات، ساقني القدر إلى مكتب فاخر كتب على بابه "قسم لغة القرآن". وقفتُ مشدوهاً أمام هذا الاسم الرائع الذي جعل مساحة اللغة العربية تعادل مساحة الوحي، لا تحدها قومية ولا حدود جغرافية. فساح عقلي في فضاء لامتناه كما لا يتناهى خطاب الوحي في الزمان والمكان، ولم أستفق من هذه اللذة المعرفية إلا على الصوت الجمهوري للدكتور طعيمة وهو يفتح الباب مودّعاً رئيس القسم الذي كان بالمناسبة أحد طلابه بالجامعة. قال صديقي الدكتور رشدي: "عذراً صديقي فقد عانيت في البحث عن القسم كما عانيت -ولا شك- في البحث عني، فقد اكتشفت أنه لا يوجد بهذه الجامعة "قسم اللغة العربية"، قلت: "بالعكس أشكرك على هذا التأخر الذي قادني إلى اكتشاف هذه الفائدة الرائعة"، ثم خاطبت رئيس القسم قائلاً: بالله عليكم كيف اخترتم هذا الاسم على غير عادة الأسماء المعروفة في الجامعات العالمية "قسم اللغة العربية". قال: "هذا يدخل ضمن الإستراتيجية التربوية للجامعة، ويكفي أن تعلموا أن هذا الاسم كان وحده كافياً كي يُقبل الطلاب على القسم بنسب تضاعف الإقبال على الأقسام الأخرى، لأنهم يدرسون هنالك لغات قومية ويدرسون هنا لغة القرآن خطاباً إلى كل القوميات.

الخلاصات والاستنتاجات

إن هذه المواقف الأربعة تسمح بالخلاصات والاستنتاجات التالية



التي آمل أن تشكل مدخل رئيسية لإعادة النظر في جهود تعليم اللغة العربية وترجمة معاني القرآن الكريم:

١- لا تغني ترجمة القرآن الكريم إلى أي لغة عن سعي المسلمين من أهلها إلى تعلم اللغة العربية، لأن قراءة ترجمة معاني القرآن الكريم، لا تعدو أن تكون قراءة في فهم المترجم للقرآن لا لنصه. والترجمة مهما بلغت دقتها لن تنطق بما ينطق به القرآن فعلا. وإن في القرآن الكريم مفاهيم ومصطلحات يعجز المترجمون عن إيجاد مقابلها في ترجمتهم فيخطئ بعضهم في ترجمتها، ويتوقف الآخرون لينقلوها بلفظها نطقا دون ترجمة، وكثير منها يتعلق بعالم الغيب مما لا يسعف المترجم في فهمها إلا إيمانه بالقرآن الكريم كأسماء الله وصفاته والجنة والنار وصفاتهما وعالم الجن والملائكة ومعجزات المرسلين وغير ذلك، مما يبرز الإعجاز القرآني في صورة جديدة دفعت المستشرق الروماني إلى الإيمان بعد جهد كبير وببحث عميق.

٢- إن المنظمات والهيئات الدولية المهتمة بنشر القرآن الكريم، بذلت مجهودات كبيرة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى جل لغات العالم، وعملت على طبعها وتوزيعها، إلا أننا نعتقد أن هذه الجهود ينبغي أن تدعم بنشر تعليم اللغة العربية في صفوف غير الناطقين بها، علما بأن الملايين من مسلمي شبه القارة الهندية وبلاد الأتراك، وجنوب شرق آسيا مثلا، يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب دون أن يفقهوا منه حرفا واحدا، ولا أن يكتبوا كلمة واحدة، ومنهم من يقرأ القرآن بالقراءات السبع، ويحفظ الصحيحين، ومع ذلك فهم محرومون من نعمة التدبر والفهم والتفقه، ولذلك سادت بينهم الخرافات والأباطيل المنسوبة إلى الإسلام رغم عنايتهم الفائقة بحفظ القرآن والحديث ولا سبيل لربطهم بالقرآن الكريم فهما وتدبرا إلا بتعلم اللغة العربية.

٣- إن المسلم الذي لا يملك اللغة العربية يظل متلقيا ومقلدا بإطلاق، ولا يمكنه أن يفهم القرآن الكريم ولا الأحكام الشرعية من مختلف مصادر الفقه الإسلامي إلا بواسطة، ويبقى حاجز اللغة بينه وبين الترجيح بين الفتاوى واختيار الأيسر منها، كما يظل عاجزا بينه وبين التجول الواسع في التراث الإسلامي وقراءته قراءة واعية. وهذه الوضعية هي التي جعلت كثيرا من مسلمي أوروبا رهيني قراءة معينة للإسلام، سواء لجماعة معينة أو لطريقة معينة، دون أن يبذل مجهودا لكسب مساحة واسعة من الحرية في قراءة الإسلام من مصادره الأصلية، والاطلاع على الاجتهادات

المختلفة، مع اتخاذ القرار في التمثل والاتباع، ولن تتاح أمامه مثل هذه الفرص إلا بتعلم اللغة العربية.

٤- تفشل خطط تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها لأنها تقدم هذه اللغة في بعدها القومي، فتحصر أهدافها في الاطلاع على الحضارة العربية وعادات وتقاليدها، ويغيب البعد العالمي لهذه اللغة باعتبارها لغة الوحي المنزل للعالمين، والواقع أن نشر هذه اللغة يتعدى البعد القومي ليكون الهدف الأسمى هو الاطلاع على تعاليم الإسلام باعتباره دينا هاديا ومخلصا؛ فاللغة في هذه الحال نافذة الدين ومدخله، وفرق كبير بين أن تربط لغة ما بحضارة قومية معينة، وأن تربطها بدين ذي أبعاد عالمية يسعى إلى أن ينتشر بين الناس عن طريق الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن.

٥- ينبغي أن تكون لغة تدريس مادة التربية الإسلامية في المدارس العربية في البلدان غير الناطقة بالعربية هي اللغة العربية، لأن في ذلك فائدتين: أولاها فهم الإسلام من مصادره الأصلية، والثانية تقوية اللغة العربية. ونحن نعلم أن كثيرا من أبناء الجالية العربية في أوروبا لا يتكلمون اللغة العربية، ورغم ذلك تقدم لهم حصص التربية الإسلامية بلغة أجنبية، فيحرمون من فرصة لا تعوض للتمكن من اللغة العربية.

ينبغي أن تُستثمر الحاجة إلى التدين بالإسلام إلى تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة الوحي تتجاوز البعد القومي بهدف خلق المسلم الحر الذي يحق له أن يبلغ يوما درجة الاجتهاد، أسوة بالعلماء المسلمين غير العرب الذين أسهموا بحظ وافر جاوز حتى العرب أنفسهم في اللغة والحديث والتفسير، وليس مثال سيبويه والبخاري ومسلم وغيرهم عنا ببعيد.

والخلاصة: أن دعم جهود تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها له أثره البالغ في التعريف بالإسلام ونشره عند أهله من المسلمين غير العرب، ولدى باقي العالمين من غير المسلمين. وسيعزز ذلك كل الجهود المبذولة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات العالم، شريطة أن ننظر إلى اللغة العربية في بعدها العالمي المستمد من عالمية الإسلام وأن نبذل مجهودات كبرى لنقلها من لغة العرب إلى لغة القرآن. ■

(٥) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.

همس الورود

د. سعاد الناصر (أم سلمى) *

وردة حمراء في وحدة الهمس
 زحفت فوق الأكف الشائكة...
 لكن لن تجرحها،
 عن يقين ترفع الحمرة
 عالياً عالياً،
 فليرحل القهر لن يعود...
 وليمضي نحو شيطان الاغتراب،
 ولترفع الوردة،
 عشق الرؤيا راية،
 راية البوح الخالدة،
 تفرش الظل قطعاً للأسر...
 وردة حمراء في وحدة الهمس،
 تنمو، تصعد، نحو النجوم،
 وتدق في جوف الأرض البذور،
 ومضات تجتر الظلال،
 وتزيح الرماد...
 لن يدب اليأس في قلبي،
 عجباً... ولماذا أعجب؟
 وأنا نبتة الغصن السعيد،
 لئبنا نداء هو الحياة،
 فتعالت الروح ولم يقطع الجسد الوصل
 بالأرض...

وردة حمراء في وحدة الهمس،
 تنمو، تصعد، نحو النجوم،
 دغدغت الصمت الكئيب،
 تنشر الفوج عبر الرمال،
 حلم الصفاء،
 فتحت لي الأبواب أنا الوردة الحمراء،
 والتقي همس الورود،
 في شبابيك الحنين..
 أحداق الفجر النحيب،
 يلقي الهم القديم،
 فليرحل الألم... لن يعود...
 هذي أنا...
 ورؤاي التي حطمت قيد الصمت،
 عن يقين ننسج الصوت العالي،
 من وحدة الهمس،
 فليرحل القهر لن يعود...
 تغرق الوردة،
 تغرق في حشو الأسى،
 ما أوحش الدرب إذا تاه الإنسان وخان!
 يطوي مسافات اللذة البائسة،
 أوراقاً تبتهت في طيف الأفول،
 حتى انطوى السعد عبر الحصار،
 يا سامع الهمس في عمق البحر!
 إني لا أدري أن يوم الخلاص،
 يوم يرمي الغافلون عناء البغاء...

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان/ المغرب.



كالبجر ليكن صدرك... بالإيمان مترعا...
وبمحبة الإنسان مضعما... وللقب الحزين مأوى وموئلا...

...

كيف يتنفس الكون؟

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ

(التكوير: ١٧-١٨)

أ.د. زغلول النجار

و

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين
أولاً: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾: قيل في الفعل "عسس" إنه مكون
من مقطعين: "عس، عس" وهو من أفعال الأضداد أو من الأفعال
المشتركة في المعنى لأن من معانيه: أقبل ظلامه أو أدبر. وفي القسم
بإقبال الليل وإدباره إشارة ضمنية رقيقة إلى كل من كروية
الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس. فلو لم تكن الأرض
كرة، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس
ما أقبل ظلام الليل ولا أدبر. وهذه الإشارة الضمنية الرقيقة
إلى هاتين الحقيقتين العلميتين من حقائق الأرض وهما كرويتها
ودورانها حول محورها أمام الشمس، هي من الدلالات القاطعة
على صدق القرآن الكريم، وعلى سلامته من أي نقص، خاصة
وقد نزل في زمن سادت الخرافات والأساطير، وغلبت على
أذهان الناس، فرأوا في الحركة الظاهرية للشمس أن الأرض ثابتة
والشمس هي التي تدور من حولها، ورأوا في أبعاد الأرض الكبيرة
شهادة على انبساطها وعدم تكورها. ولم تثبت كروية الأرض
ودورانها حول محورها أمام الشمس إلا بعد تنزل القرآن الكريم
بعدد من القرون المتطاولة، وهذا سبق القرآني بأعداد من الحقائق

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾: "الليل" واحد بمعنى الجمع، وواحدته
"ليلة". "الليل" هو الفترة الزمنية من اليوم الممتدة
من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق كما
حدده القرآن الكريم. والواو في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ﴾ هي واو
القسم.

﴿إِذَا عَسَسَ﴾: "العسوسة" و"العسعاس" رقة الظلام في
طرفي الليل، وعلى ذلك فإن من معاني قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ﴾ أي إذا أقبل وأدبر وذلك في أول الليل وآخره.
﴿وَالصُّبْحِ﴾: "الواو" هنا للقسم أيضاً، و"الصبح" هو أول
النهار، ووقت احمرار الأفق بحاجب الشمس؛ أي بما يسبق
طلوع الشمس من الأشعة تحت الحمراء. و"الصبح" ضد المساء.
﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾: أي استنشق الهواء وأخرجه، و"النَّفَسُ"
واحد "الأنفاس" وهي الرياح الداخلة والخارجة إلى الرئتين
ومنها، وبدونها تنقطع الحياة؛ يقال "تنفس" الرجل أي استنشق
الهواء وأخرجه، و"تنفس" الصعداء أي فرج الله عنه كربته حتى
استراح، وكل ذي رئة "مَتَنَفَّسٌ" و"تَنَفَّسَ الصبح" أي تَبَلَّجَ،
و"تَنَفَّسَ النهار" عبارة عن توسُّعه أي امتداده إلى الظهيرة.

العلمية هو ما يعرف باسم "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم".
ثانياً: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: التنفس عملية حيوية يأخذ فيها كل من الإنسان والحيوان غاز الأكسجين من الهواء الجوي ليتم بواسطته أكسدة الدم الفاسد المتحرك إلى الرئتين، وذلك في عملية "الشهيق" التي تتمدد فيها الرئتان تمدداً ملحوظاً. ثم يخرج الغازات السامة من مثل غاز ثاني أكسيد الكربون ومعه بعض بخار الماء وذلك في عملية "الزفير" التي تنكمش فيها الرئتان انكماشاً واضحاً. وهذه الآية الكريمة تشبه عملية تمدد نطق الغلاف الغازي للأرض مع بدء طلوع الشمس حتى غروبها، ثم انكماشها مع غياب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق بعملية تنفس الأحياء من أمثال كل من الإنسان والحيوان. وهو تشبيه معجز، خاصة وأن نطق الحماية في الغلاف الغازي للأرض لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

نطاق الغلاف الغازي للأرض

تحاط الأرض بغلاف غازي يقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات، ويتناقص فيه الضغط مع الارتفاع من كيلو جرام واحد على السنتيمتر المكعب تقريباً (١,٠٣٣٦ كج/سم^٣) عند مستوى سطح البحر إلى قرابة الصفر عند ارتفاع ستين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر.

وعموماً تحتوي المسافة من سطح البحر إلى ارتفاع ٣٥ كيلومتراً على حوالي ٩٩٪ من كتلة الغلاف الغازي للأرض المقدرة بحوالي خمسة آلاف مليون مليون طن. ويقسم هذا الغلاف الغازي للأرض على أساس من درجة حرارته إلى عدة نطق من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

١- نطاق التغيرات الجوية (The Troposphere):

ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع (١٦ كيلومتراً) فوق خط الاستواء، ويتناقص سمكه إلى حوالي عشرة كيلومترات فوق قطبي الأرض، وإلى حوالي (٧-٨ كيلومترات) فوق خطوط العرض الوسطي. وعندما تغيب الشمس فوق تلك المناطق يتقلص هذا السمك تقلصاً ملحوظاً. ويحتوي هذا النطاق على حوالي ٨٠٪ من كتلة الغلاف الغازي للأرض، وعلى جميع ما به من بخار ماء. وعندما يتحرك الهواء من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنه يهبط فوق هذا المنحنى الوسطي، فتزداد سرعته. ثم إن حركة الأرض في دورانها حول محورها من الغرب إلى الشرق

تجبر كتل الهواء على التحرك تجاه الشرق بسرعة فائقة على هيئة تيار هوائي يعرف باسم التيار النفاث. وينخفض الضغط الجوي في قمة نطاق الرجوع إلى عُشر ضغطه عند مستوى سطح البحر، كما تنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع بمعدل ١٠ درجات لكل كيلومتر ارتفاع إذا كان الهواء جافاً، و ٦,٥ (ست ونصف) درجة للهواء المشبع ببخار الماء حتى تصل إلى (-٦٠ م) في قمته فوق خط الاستواء، وذلك نظراً للابتعاد عن سطح الأرض الذي يعمل على تدفئة هذا النطاق بعد غياب الشمس. فسطح الأرض يمتص حوالي ٤٧٪ مما يسقط عليه من أشعة الشمس، فترتفع درجة حرارته أثناء النهار. وعند غياب الشمس تبدأ صحور الأرض في إعادة إشعاع الحرارة التي امتصتها على هيئة أشعة تحت حمراء إلى الغلاف الغازي للأرض خاصة إلى ما به من جزيئات ثاني أكسيد الكربون وقطيرات الماء المعلقة في السحب. فتزداد السحب ٩٨٪ من تلك الأشعة على هيئة "رجع حراري" لولاه لتجمدت الأرض بما عليها من مختلف صور الحياة بمجرد غياب الشمس. ويحد هذا النطاق من أعلى سطح افتراضي يعرف باسم سطح توقف نطاق المناخ، ينتهي عنده فيض الحرارة المناسبة من سطح الأرض.

٢- نطاق التباطؤ أو التباطؤ (The Stratosphere):

ويمتد من فوق نطاق التغيرات الجوية إلى حوالي ٥٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وترتفع فيه درجة الحرارة من -٦٠ م إلى الصفر المئوي في قمته. وفي قاعدة هذا النطاق توجد طبقة أو نطيق الأوزون (Ozonosphere)، وتمتد من ارتفاع ٢٠ كيلومتراً حتى ٤٥ كيلومتراً في المتوسط. وينتهي هذا النطاق عند سطح افتراضي ينتهي عنده التأثير الحراري لطبقة الأوزون، ويعرف باسم خط توقف نطاق التباطؤ.

٣- النطاق المتوسط (The Mesosphere):

خط توقف نطاق التباطؤ إلى ارتفاع يتراوح بين ٨٠ كم - ٩٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتنخفض فيه درجة الحرارة إلى -١٢٠ م.

٤- النطاق الحراري (The Thermosphere):

ويمتد من فوق النطاق المتوسط إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وترتفع درجة الحرارة فيه باستمرار إلى ٥٠٠ م عند ارتفاع ١٢٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتبقى



عمل الرئة في مرحلتَي الشهيق والزفير ولذلك عبر عنها القرآن الكريم بالتنفس فقال تعالى ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

ونطق الغلاف الغازي للأرض لم تكتشف بالكامل إلا بعد زيادة الفضاء في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين (سنة ١٩٥٨م)، ولم يثبت تمدها مع طلوع الشمس وانكماشها عند الغروب إلا بعد قياسات عديدة استغرقت جهود مئات من العلماء لعشرات من السنين حتى تأكدوا من ذلك.

وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة الكونية من قبل ألف وأربعمائة سنة - حتى ولو جاء ذلك في مقام التشبيه - لما يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهد الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظاً كاملاً على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهده بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الخلق أجمعين إلى قيام الساعة بأنه كلام رب العالمين في صفاته الرباني، وإشراقاته النورانية، وصدق في كل ما جاء به. ويبقى هذا سبق القرآن بالعديد من حقائق الكون أيضاً حجة على الخلق أجمعين بصدق نبوة النبي والرسول الخاتم ﷺ. وذلك لأن العلوم المكتسبة لم تصل إلى معرفة نطق الغلاف الغازي للأرض بالكامل إلا في النصف الأخير من القرن العشرين، ولم يعلم شيئاً عن تمدها مع طلوع الشمس وانكماشها عند الغروب إلا بعد مجاهدة العديد من العلماء لعشرات من السنين إلى نهاية القرن العشرين. وفي هاتين الآيتين الكريمتين يبلغ الإعجاز اللغوي والعلمي مداه في اختيار لفظة ﴿الصُّبْحُ﴾ للتعبير عن هذه الظاهرة الجوية فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

وذلك لأن تمدد نطق الغلاف الغازي للأرض يكون في أعلى درجاته مع بداية الصبح إلى الظهيرة، ثم يأخذ في التناقص والانكماش بعد ذلك إلى لحظة الغروب حين يصل سمك هذه النطق إلى أدنى مستوياته. وهذا يدل على الدقة العلمية البالغة في القرآن الكريم والدالة على صدق وحيه وعلى صدق النبي الخاتم الذي تلقاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ■

*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

ثابتة عند هذا الحد إلى أكثر من ٦٠٠ كم ثم تقفز إلى ١٥٠٠ م في فترات نشاط البقع الشمسية. وفي أجزاء من هذا النطاق تتأين جزيئات الغلاف الغازي بفعل أشعة الشمس، خاصة الأشعنتين السينية وفوق البنفسجية. ولذا يعرف باسم النطاق المتأين (The Ionosphere).

٥- النطاق الخارجي (The Exosphere): يعرف الجزء الخارجي من النطاق الحراري باسم النطاق الخارجي ويقل فيه الضغط والحرارة بشكل ملحوظ، حتى تصل إلى قرابة الصفر المطلق، ولا يحده إلا نهاية النطاق المغناطيسي للأرض.

٦- النطاق المغناطيسي للأرض (The Magnetosphere): ويمتد من مستوى سطح البحر إلى عشرات الآلاف من الكيلومترات فوق هذا المستوى. وعند قمته تتوقف آثار مغناطيسية الأرض وينتهي الغلاف الغازي للأرض الذي هو خليط من غازات الأرض ودخان السماء. وهذا النطاق يحمي الأرض من الأشعة الكونية المتجهة نحو الأرض، وما يمسك به من هذه الأشعة يكون أحزمة الإشعاع. وفي النظام المغناطيسي يتضاءل الضغط، وترتفع درجات الحرارة بشكل كبير، ويصل متوسط ارتفاع هذا النطاق إلى (٤٦٠، ٠٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر.

٧- أحزمة الإشعاع (The Radiation Belts): وهي عبارة عن زوجين من هلالية الشكل التي تحيط بالأرض، مع زيادة ملحوظة في السمك حول خط الاستواء، ورقة شديدة عند القطبين. وهذه الأحزمة مليئة بالبروتونات والنيوترونات وهي مشحونة أساساً بالبروتونات والإلكترونات التي يصطادها المجال المغناطيسي للأرض من الأشعة الكونية المتساقطة من الفضاء الكوني في اتجاه الأرض. ويتركز الزوج الداخلي من هذه الأحزمة حول ارتفاع (٣٢٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر، وهو مشحون أساساً بالإلكترونات، بينما يتركز الزوج الخارجي من هذه الأحزمة حول ارتفاع (٢٥٠٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر، ويفصل هذين الحزامين منطقة خالية من الإشعاع.

مكونات الغلاف الغازي

هذه النطق المكونة للغلاف الغازي للأرض تبدأ في التمدد مع بزوغ الفجر الصادق لتصل إلى أقصى درجات تمدها في وقت الظهيرة، ثم تبدأ في الانكماش حتى الغروب لتصل إلى أدنى سمك لها مع دخول الليل. وهذه الحركات من التمدد والانكماش تشبه

الأستاذ النورسي

والبعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكريم

أ.د. عماد الدين خليل*

وهو منطقي مرة أخرى لأن خلفيات الفكر النورسي تنبض بعشق الجمال، وتراه انعكاساً مدهشاً للإبداع الإلهي في الكون. وهو (أي النورسي) في وقفته إزاء كتابي الكون المنظور والمقروء، كان يولي اهتماماً ملحوظاً ومؤكداً لمتابعة الملامح والتشكيلات والقيم والمفردات الفنية والجمالية هنا وهناك. إنه مهندس معماري من طراز أول، وإن المرء ليلمس وهو يجتاز رسائله كافة كيف أن رؤيته للعالم والأشياء والكلمات هي رؤية مهندس يلمح ببصرة ثابتة وخبرة عميقة عناصر التوازن والتناظر في معمار الكون الكبير والكلمة المعبرة.

الإعجاز البلاغي أو البياني أو الأدبي أو اللغوي أو الفني في القرآن الكريم ينطوي كما هو معلوم على جمالياته الخاصة. وقد كتب في ذلك الكثير، منذ فجر الدراسات القرآنية وحتى اللحظات الراهنة. وهو مع ذلك يتطلب المزيد بالنسبة لكتاب ليس كالكتب وظاهرة جمالية فريدة لا تنقضي عجائبها.

بديع الزمان سعيد النورسي أدلى بدلوه هو الآخر، وكان هذا منطقياً تماماً بالنسبة لرجل تدفقت رسائله المائة والثلاثون من نبع كتاب الله المترع عذوبة وسخاء، ونسجت كلماتها على هديه.



١-النظم

إن النورسي يوظف هنا بعض معطيات ما يسميه المحدثون بنظرية النظم التي بلغت على يد عبد القاهر الجرجاني أقصى حالات اكتمالها في كتابيه المعروفين "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز".. ويحاول متابعة الارتباط أو العلاقات الداخلية -إذا صح التعبير- في نسيج النص القرآني بين الكلمات والجمل والتعبير والأنساق، فيما عده البعض جهداً بنيوياً بشكل من الأشكال.

وفي تفسيره لسورة البقرة في "إشارات الإعجاز" نفذ النورسي محاولة تطبيقية لنظرية النظم هذه في بعض جوانبها، ولكنه في "الكلمات" يكتفي بشواهد محددة فحسب حيث لا يتسع المجال للاستفاضة. ومن هذه الشواهد تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٦) حيث يقول: "هذه الجملة مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فإن جميع هيئات الجملة التي تفيد التقليل تنظر إلى هذا التقليل وتمده بالقوة كي يظهر الهول. فلفظ ﴿لَمَّا﴾ هو للتشكيك، والشك يوحى القلة. ولفظ ﴿مَسَّ﴾ هو إصابة قليلة يفيد القلة أيضاً. ولفظ ﴿نَفْحَةٌ﴾ مادته رائحة قليلة، يفيد القلة، كما أن صيغته تدل على واحدة، أي واحدة صغيرة، كما في التعبير الصرفي -مصدر المرة- يفيد القلة. وتنوين التنكير في ﴿نَفْحَةٌ﴾ هي لتقليلها، بمعنى أنها شيء صغير إلى حد لا يعلم فينكر. ولفظ ﴿مِنْ﴾ هو للتبعض، بمعنى جزء، يفيد القلة. ولفظ ﴿عَذَابٍ﴾ هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة إلى النكال والعقاب، فيشير إلى القلة. ولفظ ﴿رَبِّكَ﴾ بدلاً من القهار، الجبار، المنتقم، يفيد القلة أيضاً وذلك بإحساسه الشفقة والرحمة. وهكذا تفيد الجملة أنه إذا كان العذاب شديداً ومؤثراً مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الآلهي؟! فتأمل في الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فيعين كل الآخر، فكل يمد المقصد بجهته الخاصة".^(٤)

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى الأسباب التي قد تنحل في الحالات الاعتيادية بقدرة الخطاب على الاحتفاظ بسلامة "نظمه" من الخلل والاضطراب. أما في كتاب الله فإن الإعجاز القرآني يعرف كيف يتمثلها ويطوئها.

فهناك ما يقارب تسعة أسباب: "إذ إن القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجماً نجماً لمواقع الحاجات نزولاً متفرقاً متقطعاً، مع أنه يظهر من التلازم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة.

عالج النورسي جلّ المسائل والقيم الفنية والجمالية التي عني بها القدماء والمحدثون في دراساتهم البلاغية والأدبية والفنية واللغوية لكتاب الله، بدءاً من الجاحظ والزمخشري والسكاكي والجرجاني وصولاً إلى الخولي وسيد قطب وبنيت الشاطي وعشرات بل مئات غير هؤلاء وهؤلاء... وهو لم يكد يترك واحدة من هذه القيم الفنية دون أن يقف عندها متأملاً، مدققاً، مستدعيًا الشاهد الذي يؤكدها.

القيم أو المعطيات البلاغية

ينطلق النورسي في تعامله مع "البلاغة" القرآنية وإعجازها، من الخصائص التي أكدها القدماء والمحدثون: جزالة النظم وحسن متانته، وبداعة الأسلوب وغرابته وجودته، وبراعة البيان وتفوقه وصفوته، وقوة المعاني وصدقها، وفصاحة الألفاظ وسلاستها،^(١) مؤكداً أن "البيئة" التي تنزل فيها القرآن كانت في أشد حالات فصاحتها الفطرية وبلاغتها المطبوعة تألقاً وتمكناً.

لقد عوّض العرب بغياب التدوين ذاكرة حادة، وسلامة في الأداء الشفاهي جعلتهم يتعاملون مع "الكلمة" في سويتها التي لا يشوبها دخل. ولقد عبّر شعرهم، ومعلقاتهم السبع التي وضعت على جدار الكعبة، عن المستوى "البلاغي" العالي الذي بلغوه. فلما تحداهم القرآن ليأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وعجزوا عن الاستجابة، كان هذا بحذ ذاته تأكيداً لمعجزة القرآن.^(٢)

كان هناك كما يقول النورسي دافعان في غاية القوة لمعارضة القرآن والإتيان بمثله. أولهما: حرص الأعداء على معارضة كهذه، وثانيهما: شغف الأصدقاء بتقليده. والنتيجة: "لا شيء". وأصبحت محاولة كمحاولة مسليمة الكذاب -رغم أنه من أصحاب البلاغة- مثلاً يتندر به المتسدرون وصورة من صور الهذيان الذي لا يستحق الالتفات.

عناصر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم

يبدأ النورسي بتحليل عناصر الإعجاز البلاغي الخمسة فيبدأ بالنظم هذا الذي وقف عنده طويلاً في كتابه المعروف "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز". ويضرب لذلك مثلاً: عقارب الساعة العادة للثنائي والدقائق والساعات والتي يكمل كل منها نظام الآخر "كذلك النظم في هيئات كل جملة من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته، والانتظام الذي في مناسبة الجمل كل تجاه الآخر".^(٣)

وأيضاً إنه نزل في ثلاث وعشرين سنة لأسباب نزول مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التسانيد التام كأنه نزل لسبب واحد. وأيضاً إنه جاء جواباً لأسئلة مكررة متفاوتة، مع أنه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد. وأيضاً إنه جاء بيانا لأحكام حوادث متعددة متغيرة، مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة. وأيضاً إنه نزل متضمناً لتنزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسيل. وأيضاً إنه جاء مكملاً ومتوجهاً إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة. وأيضاً إنه نزل هادياً وموصلاً إلى غايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع أنه يبين من الاستقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأن المقصد واحد. فهذه الأسباب مع أنها أسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى إلا أنها استخدمت في إظهار إعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه..".^(٥)

٢- المعنى

المعنى هو العنصر الآخر في الإعجاز البلاغي للقرآن، يقول النورسي: "تصور نفسك قبل مجيء نور القرآن، في ذلك العصر الجاهلي، وفي صحراء البداوة والجهل، وبينما تجد كل شيء قد أسدل عليه ستار الغفلة وغشيه ظلام الجهل ولف بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشاهد بصدى قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد: ١) أو ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (الإسراء: ٤٤) قد دبت الحياة في تلك الموجودات الهامدة أو الميتة بصدى ﴿سَبِّحْ﴾ و﴿تُسَبِّحْ﴾ في أذهان السامعين فتنهض مسبحةً ذاكرة لله. وإن وجه السماء المظلمة التي تستعر فيها نجوم جامدة، والأرض التي تدب فيها مخلوقات عاجزة، تتحول في نظر السامعين بصدى ﴿تُسَبِّحْ﴾ وبنوره إلى فم ذاكر لله، كل نجم يشع نور الحقيقة ويبث حكمة حكيمة بالغة. ويتحول وجه الأرض بذلك الصدى السماوي ونوره إلى رأس عظيم، والبر والبحر لسائين يلهجان بالتسبيح والتقديس، وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبحة حتى لكان الأرض كلها تنبض بالحياة".^(٦)

إن معاني القرآن كلها، بفضاءاتها الفسيحة، يقدمها الخطاب القرآني للناس في كل زمان ومكان بأسلوبياته المتميزة التي هي وحدها كفاء لمضامين هذا الخطاب.

٣- الأسلوب

وهذا ينقلنا إلى العنصر الثالث في الإعجاز البلاغي لكتاب الله: الأسلوب.. إنه غريب وبديع، كما هو عجيب ومقنع: "لم يقلد أحداً قط ولا يستطيع أحد أن يقلده. ولقد حافظ وما يزال يحافظ على طراوته وشبابيته وغرابته مثلما نزل أول مرة".^(٧) وفي مكان آخر يقف النورسي طويلاً عند إحدى الخصائص الأسلوبية للقرآن، تلك هي "جامعيته" المثيرة للدهشة "حتى إن سورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضم الكون بين جوانحه، وإن آية واحدة تضم خزينة تلك السورة، وإن أكثر الآيات - كل منها - كسورة صغيرة، وأكثر السور - كل منها - كقرآن صغير. فمن هذا الإيجاز المعجز ينشأ لطف عظيم للأرشاد وتسهيل واسع جميل. لأن كل إنسان على الرغم من حاجته إلى تلاوة القرآن كل وقت فإنه قد لا يتاح له تلاوته.. فلكي لا يحرم أحد من القرآن فإن كل سورة في حكم قرآن صغير. بل كل آية طويلة في مقام سورة قصيرة، حتى إن أهل الكشف متفقون أن القرآن في الفاتحة والفاخرة في البسمة. أما البرهان على هذا فهو إجماع أهل التحقيق العلماء".^(٨)

٤- اللفظ

أما العنصر الرابع فهو "اللفظ". "نعم، إن القرآن كما هو بليغ خارق من حيث أسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظه. والدليل القاطع على فصاحته هو عدم إيرائه السأم والملل، كما أن شهادة علماء البيان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته".^(٩) ويمضي النورسي إلى القول بأنه "لو كرر ألوف المرات فإنه لا يورث سأم ولا مللاً، بل يزيد لذة وحلاوة. ثم إنه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه، ولا تسأم منه أذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى بأذى كلام، بل يتلذذ به وكأنه الشراب العذب".^(١٠)

ويبحث النورسي عن الأسباب وراء تألق اللفظ القرآني ويقول: "إن القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوة وغناء للعقول، وماء وضيء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يمل.. إنه حق



وحقيقة وصدق وهدي".^(١١) ويضرب على ذلك مثلاً آية واحدة من سورة آل عمران.^(١٢)

وما دام النورسي يتعامل ها هنا مع "الألفاظ" فإنه يجد نفسه ملزماً بالرجوع كرة أخرى إلى "النظم" القرآني الفريد: "نعم، إن الألفاظ القرآنية قد وضعت وضعا بحيث إن لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى السكون أحياناً وجوها كثيرة جداً، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة؛ فمثلاً ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ﴾ (الباء: ٧). فحظ عامي من هذا الكلام أنه يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينه، فيتأمل ما فيها من نعم وفوائد ويشكر خالقه.

وحصة شاعر من هذا الكلام أنه يتخيل أن الأرض سهل منبسط، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضربت عليه، وزُيّنت الخيمة بمصاييح، وأن الجبال تتراءى وهي قملأ دائرة الأفق، تمس قممها أذيال السماء، وكأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة، فتغمره الحيرة والإعجاب ويقلس الصانع الجليل.

أما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام أنه يتصور سطح الأرض كصحراء واسعة، وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لحيم كثيرة بأنواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى إن طبقة التراب عبارة عن غطاء ألقى على تلك الأوتاد المرتفعة فرفعت برؤوسها الحادة، جاعلة منها مساكن مختلفة لأنواع شتى من المخلوقات. وكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة وإعجاب بعمله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الأرض.

أما الجغرافي الأديب فحصته من هذا الكلام أن كرة الأرض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي أو الأثيري. وأن الجبال أوتاد دقت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. هكذا يفكر الجغرافي ويقول أمام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الأرضية الضخمة سفينة منتظمة وأركبنا فيها، لتجري بنا في آفاق العالم: "سبحانك ما أعظم شأنك".

أما المتخصص في أمور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصته من هذا الكلام أنه يفهم الأرض عبارة عن مسكن، وأن عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وأن عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب التي هي شرائط الحياة. وأن عماد هذه الثلاثة هو الجبال، لأن الجبال مخازن الماء، مشاطة الهواء ومصفاته إذ ترسب الغازات المضرة، وحامية التراب إذ تحميها من

استيلاء البحر والتوحدل، وخزينة لسائر ما تقتضيه حياة الإنسان. هكذا يفهم فيحمد ويقلس ذلكم الصانع ذا الجلال والإكرام الذي جعل هذه الجبال العملاقة أوتادا ومخازن معاشنا على الأرض التي هي مسكن حياتنا.

وحصة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام أنه يدرك أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الأرض تجدد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سبباً لهدوء الأرض، واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدوها عن مدارها السنوي، وكأن الأرض تتنفس بمنافذ الجبال فيخف غضبها وتسكن حدتها. هكذا يفهم ويطمئن ويلج في الإيمان قائلاً: "الحكمة لله".^(١٣)

٥- البيان

أما العنصر الخامس وهو "البيان" فيقف عنده طويلاً باعتباره جماع العناصر كافة. إنه أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب وأقسام الكلام كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والإثبات والإرشاد، والإفهام والإفحام.^(١٤)

"ومن بين آلاف أمثلة مقام الذم والزرر الآية الكريمة: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢). تنهى هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مرات وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيث إن خطاب الآية موجه إلى المغنابيين فيكون المعنى كالاتي: إن الهمة الموجودة في البداية، للاستفهام الإنكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء إلى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكماً؛ ففي الكلمة الأولى تخاطب الآية الكريمة بالهمزة: أليس لكم عقل -وهو محل السؤال والجواب- ليعي هذا الأمر القبيح؟. وفي الكلمة الثانية ﴿أَيُّحِبُّ﴾ تخاطب الآية بالهمزة: هل فسد قلبكم -وهو محل الحب والبغض- حتى أصبح يجب أكره الأشياء وأشدّها تنفيراً. وفي الكلمة الثالثة ﴿أَحَدُكُمْ﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية -التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة- وما بال مدنيّتكم وحضارتكم حتى أصبحت ترضى بما يسمم حياتكم ويعرّض صفوكم. وفي الكلمة الرابعة ﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا أصابت إنسانيتكم حتى أصبحتم تفترون صديقكم الحميم. وفي الكلمة الخامسة ﴿أَخِيهِ﴾ تخاطب بالهمزة: أليس بكم رافة بيني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم حتى أصبحتم تفتكون بمن

هو أخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشا قاسيا، أملك عقلا من يعضّ عضوا من جسمه؟ أوليس هو بمجنون؟! وفي الكلمة السادسة ﴿مَيْتًا﴾ تخاطب بالهمزة: أين وجدانكم؟ أفسدت فطرتكم حتى أصبحتم تتحرّحون أبغض الأشياء وأفسدها - وهو أكل لحم أخيك - في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير^(١٥).

ثم يخلص النورسي إلى القول بأن هذه الآية يفهم منها: "وبما ذكرناه من دلائل مختلفة في كلماتها، أن الغيبة مذمومة عقلا وقلبا وإنسانية ووجدانا وفطرة وعصبية وملة. فتدبر هذه الآية الكريمة، وانظر كيف ألها تزرع عن جريمة الغيبة بإعجاز بالغ وبإيجاز شديد"^(١٦).

خاتمة

إن النورسي وهو يتحدث عن البعد الجمالي في أساليب القرآن الكريم ويحاول أن يجزئ المعطى الجمالي بالإحالة على مصطلحات البلاغيين كالنظم والمعنى والأسلوب واللفظ والبيان والتكرار... الخ.. لم يقصد أثبتة أن يحصر هذه المعطيات في دوائر تلك الحلقات المحددة في الدراسات البلاغية، ولا أن يخصص للموضوع عدداً من المقاطع والمباحث والرسائل والكلمات، ثم يمضي لمعالجة الموضوعات الأخرى بعيداً عن أطرها أو نبضها الجمالي. ذلك أن الإحساس بالجمال، ورؤيته، والتفاعل معه، وتلقيه، وتحليل أبعاده وعناصره - سواء في كتاب الكون المنظور أو الكتاب المقروء - يهيمن على كلمات النورسي ورسائله من بدئها حتى منتهاها^(١٧) ومن ثم فإن ما يقوله النورسي ها هنا عن جماليات الأسلوب القرآني، قد ينتشر بالكلمة القرآنية نفسها، جنباً إلى جنب مع الإبداع الإلهي في الكون والعالم، عبر الرسائل المائة والثلاثين جميعاً.

ولكنها ضرورات الدراسة - كما يقولون - تقتضي - أحياناً - من الطرفين: المفكر ودارسيه، تحجيم القيم والمعاني من أجل السيطرة عليها.

ويبقى كتاب الله، قبل هذا وبعده، ينطوي على ما هو أغلى وأعلى وأكثر إثارة للدهشة والإجلال والتقدير: إنه الجلال الإلهي الذي تعجز الكلمات عن تقريب أبعاده للمتلقي، لأنه كلام الله جلّ في علاه، والذي يمكن للمرء أن يلمسه ويحسه وينفعل معه وهو يقرأ في كتاب الله منذ أول كلمة فيه حتى آخر حرف، لكنه

لسن يكون بمقدوره أن يصفه، أو يحدده، أو يكتب عنه بما يوازي تماماً حجمه أو تأثيره الحقيقي.

هذا الجلال القرآني الذي ينبض بالجمال.. بالتناظر والتناسب، والتوزيع المذهل للأبعاد والمساحات.. هذا التدفق الموصول الذي لا يكف عن الخفقان لحظة واحدة، ولا عن الإيماض لحظة واحدة، ولا عن الوعد بالعجيب المدهش لحظة واحدة.

أليس هو قبل هذا، ومعه وبعده، من عطاء الله الجميل الذي يحب الجمال، والذي لا تنفد كلماته، والذي إذا أراد شيئاً أن يقول له "كن" فيكون؟! ■

(١٥) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

- (١) الكلمات، لبديع الزمان سعيّد النورسي، ص ٤٢٤.
- (٢) انظر بالتفصيل: الكلمات ص ٤٣٤-٥١٨، ٤٢٦-٥١٩، ٥١٩.
- (٣) الكلمات ص ٤٢٦؛ وانظر: إشارات الإعجاز، ص ١٣٤، ٢٠٨.
- (٤) الكلمات ص ٤٢٦-٤٢٧.
- (٥) الكلمات ص ٤٨١-٤٨٢.
- (٦) الكلمات ص ٤٢٩-٤٣٠.
- (٧) الكلمات، ص ٤٣١.
- (٨) الكلمات، ص ٤٥٩-٤٦٠.
- (٩) الكلمات، ص ٤٣٦.
- (١٠) الكلمات، ص ٤٣٦.
- (١١) الكلمات، ص ٤٣٧.
- (١٢) ﴿ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَاعِسًا يُغْنِي عَنْكُمْ وَالْأَمْرُ أَهْمُهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَقُولُونَ بِاللَّهِ الْغَيْبِ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).
- (١٣) الكلمات ص ٤٥٢-٤٥٣.
- (١٤) الكلمات، ص ٤٣٩.
- (١٥) الكلمات ص ٤٣٩-٤٤٠.
- (١٦) الكلمات ص ٤٤٠-٤٤١.
- (١٧) سبق وأن أُنجز الباحث دراسة بعنوان "الكلمات: رؤية جمالية" تناولت الأسلوب والتقنيات، والموضوع الجمالي في الطبيعة والعالم والكون وقد نشرت في المجلد الخاص ببحوث الندوة العالمية الثانية حول فكر النورسي، إستانبول، دار سوزلر - ١٩٩٣م.



﴿ أ. د. برکات محمد مراد ﴾

ولقد حقق معالجة فعالة في مجال تقنين الضوء باستخدام "المشرية" أو "الروشان" أو "الششنييل" وكذلك نوافذ الزجاج المعشق بالحص. كما تمكن من تحقيق المحافظة على الحياة الجوانية التي يحياها الإنسان المسلم في بيته وبيئته المكانية، من خلال

وكان الفناء في الأغلب يحتوي على فسقية داخل الحديقة، في أشكال هندسية مثمّنة داخل مربع، وإن شكل الفسقية هذا لم يأت صدفة، وإنما اختيار - كما يقول أحد الباحثين - لقيمة رمزية؛ فالمنزل بالنسبة للمسلم كان عبارة عن تكوين صغير، وباستخدام الرمز والعناصر المعمارية للتعبير عن نظريته الكونية كان يعتبر القبة رمز السماء، ولهذا ولكي يشدّ قبة السماء إلى وسط الدار ويجعل قدسيّتها تتسرب إلى الحجرات، فإنه عمل الفسقية على شكل القبة الساسانية مقلوبة لتعكس السماء الحقيقية على أسطح المياه في هذه السماء الرمزية.

هكذا توصل البدوي العربي إلى إدخال الطبيعة والكون اللذين كان دائم الاتصال بهما في حياته البدوية في الصحراء إلى البيت الحضري بواسطة الرمز وتحويل الطبيعة إلى عناصر معمارية، غير أن المعماريين يعتبرون تدفق المياه من نافورة أو سلسيل هو في حد ذاته رمز للحياة التي يتأملها الإنسان، إضافة إلى أنها تساعد على ترطيب الجو والهواء.

المشربية أشكالها وخصوصيتها

وقد تميز البيت المصري في العصر الإسلامي -مثلا- بوجود مشربية، تسمح بدخول الهواء ولا تسمح بدخول أشعة الشمس، وعادة ما توضع المشربيات لتغطي المسطح الخارجي للشبابيك أو البلكونات أو الشمعة التي تستعمل للجلوس في الداخل والتمتع بالخصوصية، وتلطيف الرياح دون التعرض لأشعة الشمس. وتعتبر المشربية مظهرا من مظاهر العمارة الإسلامية جاء متوافقا مع الظروف المختلفة للمجتمع الإسلامي.

والمقصود بالمشربية ذلك الجزء البارز عن سمّت حوائط المباني التي تطل على الشارع أو على الفناء الأوسط للمنازل الإسلامية بغرض زيادة مساحة سطح الأدوار العليا. ويستند هذا الجزء البارز إلى "كوابيل" و"مدادات" من الحجر أو الخشب تربط الجزء البارز من المبنى، بينما تغطّي الجوانب الرأسية الثلاثة لهذا الجزء البارز بمحشوات من الخشب الخراط المكوّن من "برامق" مخروطية الشكل دقيقة الصنع تجمع بطريقة فنية بحيث ينتج عن تجمعها أشكالاً زخرفية هندسية ونباتية أو كتابات عربية.

وسميت المشربية بهذا الاسم لوجود صلة وثيقة بين هذا الجزء من المبنى وبين أواني الشراب (القلل الفخارية) التي كانت توضع

بها. وتعرف المشربية في بعض بلدان العالم الإسلامي باسم "روشن" أو "روشان" وهي تعريب للكلمة الفارسية "روزن" وتعني الكوة أو النافذة أو الشرفة.

وقد وصل فن المشربية إلى درجة كبيرة من الإتقان في مصر خلال العصر المملوكي، ويظهر ذلك بوضوح في القطوع الخشبي المنقول من مدرسة السلطان حسن إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وفي مجموعة المشربيات في منزل "زينب نحأتون" وغيرها.

وتستعمل المشربيات، التي هي معالجة مصرية إسلامية، في الجزء السفلي من السكن لكسر حدة الضوء وتوفير الخصوصية، أما الأجزاء المرتفعة فتستعمل لها مشربيات أوسع تساعد على التهوية. ومما هو جدير بالذكر أن الوحدات المختلفة لهذه المشربيات، أو بمعنى أدقّ لهذه المقاسات المطلقة لا يمكن تكبيرها أو تصغيرها، حيث إن هذه المشربيات تستعمل لكسر حدة الضوء الناتج عن شدة الإضاءة. وقد عجز معماريو الغرب عن تفهم عمق الحلول المعمارية في الشرق، فاقبّسوا أشكالها دون جوهرها؛ فأنت استعمالهم لأشكالها - كما يقول باحث معاصر - إلى عكس الغرض منها، فزادت حدة الضوء في كثير من الحالات. والمشربية تبرز عن البناء إلى الأمام كلها من الخشب الأرابيسك، تحظى بالدقة والمهارة في صنعها وزخرفتها، كما تحجب السكّان عن عيون المارة بتوزيع الضوء والظل على تكوينها في تدرج رائع، يعلوها طاقات من الزجاج الملون المعشق.

وقد ظهرت المشربية في العمارة الإسلامية مرتبطة بالخصوصية، وأخذت أشكالاً عدة، وتطورت تطورا كبيرا؛ ففي القصور أخذت شكل المقصورات التي تطل على "التختبوش" وهي الجلسات الخاصة حول الحديقة الداخلية بنافوراها وطيوورها. والمقصورة قد تكون مثلثة الشكل أو مربعة أو مستطيلة أو دائرية، وتظهر في الوكالات والخانات التي لا زالت موجودة حتى الآن كوكالة الغوري وخان الخليلي.

وهذا الشكل من البلكونات أو المشربيات يعتبر صبغة معتدلة في العمارة الإسلامية إذ تحفظ الخصوصية، وتعطي للسكان حرية الرؤية والمشاهدة، وخاصة في الخانات والوكالات التي كانت تعتبر سكنا جماعيا للأغراب وغيرهم. كما أنها تعمل على تلطيف



شهادة على العصر

ومن هنا فإذا حرص الفنان المعماري في العصور الإسلامية على إضفاء طابع الإهمار على الشكل الذي أنتجه، فلا نرهق أنفسنا - كما يقول باحث وناقد للفن المعاصر - كثيرا في البحث عن أصول بيزنطية أو ساسانية، لأن الفنان هنا وبمعناه الشامل يقدم رؤية كاملة وشهادات على عصره. فتفسيره يكمن في الفكر الذي وجهه وقيدته أحيانا في مقابل الفنون السابقة في عصور ما قبل الإسلام. فقد أحل الإسلام مبادئ التوحيد والمساواة، وألغى الصراع بين الإنسان والغيب، وبينه وبين الطبيعة، وبين وبين الخطيئة، وسرعان ما تلقى المعمار والفنان هذا، وترجمه إلى شكل ومضمون.

لم يكن المعمار المسلم، وذلك منذ البداية مشغولا ببناء عمارة للمدن تعبر عن انتصار وطموح إلى سلطان واسع - كما جرت العادة في الحضارات السابقة - بل كان مهتما ببناء عمارة لا تنتصر لأنها لا تُهزم. والمدينة التي لا تفتقر، إنما الحق الواحد الشاهدة على عرْضية وفناء كل شيء إلا هو ^{عَلَّاهُ}؛ فهو الحي الغالب الغني الباقي. ولذا فعندما بنى المسلمون المنتصرون في الأندلس حفروا على جدرانها عبارات "لا غالب إلا الله".

الفنان المسلم واستغلال البيئة

ولا يمكن أن نغفل استغلال الفنان المسلم للمواد المعمارية الموجودة بوفرة في البيئة، وهذا نجده واضحا في الأبنية والقصور والمساجد التي أنشأها الفنان المسلم في الجمهوريات الإسلامية الواقعة جنوب الاتحاد السوفيتي سابقا، مثل تركستان وما وراء النهر وإيران وأذربيجان وأفغانستان. فمن غير المنتظر أن يتخذ نشاط البناء والإنشاء المعماري فيها كلها طرازا واحدا ذا هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة، وإنما الرابطة هنا تتمثل في خصائص تفصيلية تتصل بالمواد المستعملة والطرق الفنية التي لجأ إليها المعمارون في علاج المشكلات المعمارية، وكذلك في أنواع معينة من الزخارف التي سادت فيها. قال "برنارد بيترسون" في خطاب إلى "جون ديريك": "إن طبيعة الصخور هناك تمكن المعماري من إنشاء مبان تشبه الجواهر في دقتها وإحكامها". وبالفعل فإن خامات الصخور التي أنشئت منها المباني السلجوقية بديعة في صلابتها واستجابتها للنحت

درجة الحرارة من خلال النسيم الذي يمر من بين هذه الفتحات، خاصة وأن التكوين الهيكلي والزخرفي للمشربية يتفق تماما مع الظروف المناخية لمعظم بلدان العالم الإسلامي والذي تسوده في معظم فصول السنة شمس ساطعة.

وتعد المشربية من أحسن الحلول لهذه المظاهر الطبيعية، إذ إن الفتحات الضيقة التي تتخلل قطع الخراط تتحكم في كمية الضوء النافذ إلى الغرفة المقامة عليها المشربية، وتعمل بذلك على تلطيف درجة الحرارة. ومن اللافت للنظر أن المشربية كانت تُصنع من أخشاب لها خواص معينة تمتص الرطوبة، وتمنع زغلة العينين، بل من خلال التحكم في "دائلا" المشربية يمكن التحكم في حركة الهواء، ومعالجة الإضاءة في المناطق الشديدة الحرارة.

ومن الجدير بالذكر أن طريقة المشربية كنوافذ للتهوية والإضاءة تمثل جانبا اقتصاديا مهما، فقد كانت الأجزاء الصغيرة المتبقية من عمل الأسقف والأبواب والنوافذ وغيرها من وحدات البناء التي تعتمد على الخشب تستغل في تصنيع المشربية، كما أن الاعتقاد بارتفاع تكلفة المشربية أمكن التغلب عليها باستخدام خامات بديلة رخيصة الثمن، مثل خشب النخيل بعد معالجته بالمواد التي تقاوم الحرارة والرطوبة.

من البيت إلى المدينة

كذلك نجد تخطيط المدينة الإسلامية يتميز بالأصالة، وإذا كان للبيت استقلاله وقديسيته وارتفاع جدرانه مع ضيق نوافذها وعلوها، فإن المدينة ككل يجب أن تكون مسورة ومغلقة ومليئة بالمرافق، وما يحكم الأمر كله هو تداخل الأشياء وتتابعها وانتشارها وتجريدها.

فإذا كان هناك تعامل مع العناصر النباتية والهندسية، وقوامها الخطوط المنحنية والمستديرة والملتفة مع مراعاة للتقابل والتوازن، فإنه يلاحظ عدم وجود بداية أو نهاية لها، فهي تمتد وتأخذ في الامتداد لتعبر عن الأزلي، وعن انطلاقة الروح إلى ما يسمى "التألف العذب" للوصول إلى التيه الأعذب، بواسطة الدوائر المتماصة والمتحاورة والخطوط المنكسرة والمتشابكة، فضلا عن وجود المثلث والمربع والشكل الخماسي والسداسي، كما يتضح لنا في تلك الزخارف التي أبدعها الفنان المسلم، وزخرف فيها أبنيته ومساجده ومنازله وأسواقه.

العنصر الرئيس الأوحـد في تغطيتها، حيث يرى لها مزاياها الفريدة، فهي تعكس أكبر قدر من أشعة الشمس، كما توفر قدرا من الظلال والظل، الأمر الذي يخفف من الأحمال الحرارية في الداخل، ومن ناحية فإن هذه الأبنية أو القباب تعمل على زيادة ارتفاع الجزء الأوسط من السقف من الداخل الأمر الذي يساعد على امتصاص الجو الحار الذي يرتفع إلى أعلى، كما أن حركة الهواء تزيد على الأقبية والقباب.

الإيقاع المعماري

والإيقاع يوصف بأنه كم التدفق الذي نقيس به مدى الحيوية أو الحمود في الشعر والموسيقى أو أنه تيار الحياة الذي يسرى في كيان الصياغات بقدر من شأنه أن يطرُق عتبة مشاعرنا ليثبت وجوده.

ويكشف عنصر الإيقاع في مجال العمارة عن نوازع مبدعيه. فاستخدام المنحنيات المزاوغة برؤوس أعمدة الكرنك في قباب مساجد بلاد الشرق يدل على سحر البيئة، وعلى انجذاب الشرقيين الصوفي نحو أبواب السماء. وفي انضباط التريع في رحاب ساحات المعابد دلالة على مدى انضباط الطابع الموسوعي للفكر الإغريقي، واستخدام الرومان لشكل القوس النصف دائري علامة على مدى الصلف وشدة الاعتداد بالنفس، وشكل ارتفاع الانسياب الحلزوني في نوافذ البيوت ببلاد المغرب هو الذي يكشف عن مدى طموح المغربيين.

وهكذا يمكننا أن ندرك تلك العلاقات الخفية التي تنشأ بين مختلف الفنون، ولذلك كانت علاقة العمارة بالشعر والموسيقى موضع دراسة في العصر الحديث، ويمكننا أيضا أن نستشف علاقة العمارة بالفلسفة، حين نحاول قراءة الفلسفة المختفية خلف العمارة الإسلامية، أو قراءة ما توحى به هذه العمارة من فلسفة ورؤى فكرية أو روحية مستمدة في الأساس من الإسلام كوحي إلهي. ■

والزخرفة في آن واحد. والنتيجة أن الصخور وحدها مكنت المعماري من إنشاء أعمال ذات متانة وجمال؛ فالجدران والبوابات والأعمدة والعقود تقوم متينة محكمة، والمزخرف ينقش فيها ما يشاء في إحكام ودقة، وألوان هذه الأحجار طبيعية متنوعة، تكفي وحدها لإخراج صور فنية جميلة ذات ألوان. وقد كان ذلك مُعينا للبناء والمزخرف على ابتكار "صنعة خاصة" وصل بها إلى ذروة حقيقية من ذرى الإبداع المعماري على مر العصور. وقد أبدع المعماريون المسلمون في استخدام هذا الآجر في البناء والزخرفة على نحو لا يضارعه فيه إلا الفنانون الأندلسيون، الذين استخدموا الآجر في بناء منشآت الطرازين المستعربين والمدجنين الأندلسيين.

القبة رمز السماء

والقبة في العمارة الإسلامية رمز للسماء، وخاصة في عمارة المساجد والأضرحة. فمبنى المسجد يعبر عن انفتاحه في اتجاهين بتصميمه وتكويناته المعمارية في الاتجاه الأول رأسيا للاتصال بالسماء وللإتجاه الثاني أفقيا نحو الكعبة المكرمة للاتصال بكعبة المسلمين، وهو بذلك قد حقق الرمز باتصاله بالسماء على مستوى الجماعة بواسطة المئذنة في فكرة التسامي إلى العلا في عمارة الجامع بالمئذنة.

ولما لا شك فيه أن القباب القرطبية كان لها أعظم الأثر في إلهام الفنانين الفرنسيين في منطقة "أبل دي فرانس" إلى الحل المعماري الفريد الذي تكشف عنه القباب القوطية عندما وقفوا إلى فكرة دمج الضلوع القرطبية في القبة المتعارضة عن طريق دعم الأجزاء البارزة من هذه القبة الأخيرة بإدخال نظام الضلوع المتقاطعة الصلبة. ولم يلبث هذا الابتكار أن طبق في تغطية مسطحات واسعة بالكنايس عوضا عن مواضع ضيقة محصورة.

وهنا ينحصر عنصر الإلهام في إدراك المعمار المسلم لأصول الجمال الناشئ من تشابك الضلوع وتقاطعها هندسيا حيث تُولف أشكالاً نجمية متناسقة، وعبر المقرئ في كتابه "نفح الطيب" عن هذا الإلهام بقوله: "وُظهِرُ القباب مؤللةً وبطونها مهللة، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان".

فكانت الزوايا والأسقف المحلية أو المقببة التي استعملها المعماري القدير "حسن فتحي" في عمارته عنصرا رئيسيا أو

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.



طوبى

نبيلة الخطيب*

سلاّم علينا من الله
في كل حين...
وطوبى...
لمن يُتقنون التَبَصُّرَ
حتى وإن أطق السرمدان:
الدجى والضباب...
وطوبى.. لمن ينثرون
بذار الحياة
بأرض يباب...
لمن يُغدقون
بفصل الجفاف الرّواء...
فتخصّر فينا رياض الكلام،
وتمتدّ فيها حقول الضياء،
وطوبى..
لمن يعُمّرون
بيوتاً على الأرض
تغدو قصوراً لهم
في أعالي السماء...

وننسى القواعد عند المرور،
ولا نحتفي جيداً بالحساب؟!
فينسرح العقل من صحوة الروح
ترنيمَةً للجنون!
نخطّ على صفحة العمر..
بالجمر..
ننقشُ وشماً
على جبهة الدهر،
ندري بأننا سنمضي،
ونلقى بأجسادنا للتراب،
ونسعى بأرواحنا
كي تقرّ
إذا ما استقرّت
مع الخالدين...
سلاّم عليها من الله
في كل حين..
لهذا يحسّ المسافرُ منّا،
بأروع ما يُبهج النفس،
في مهرجان الإياب...

خُلِقنا..
وما عبثاً
كان كل الذي فوقها
من تراب...
دحاها مهاداً
لمن يسكنون،
وأودعنا الله
سرّ التماهي،
وعلمها كيف تغدو دثاراً
وأما رَوْوَمَا
لمن يهجعون...
فما العمرُ إلا رفيفُ الثواني،
كما زَغَب في رياض السنين...
وما الموتُ إلا
طقوسٌ من الصمت
في بُرْهة من سكون...
ونعلمُ أنا بدنياً امتحان
لماذا إذن يُحزَمُ اللبُّ
ذاكرةً من سراب؟!
...

(*) شاعرة وأديبة - الأردن.

حضارتنا الإسلامية... من المرض إلى النهضة

أ.د. عبد الحليم عويس*

أقل منا في الإمكانيات الزراعية بكثير، لكنهم أغنى منا عقلاً، ووعياً، وتخطيطاً، وإرادة.

وإنما أمراضنا في حقيقتها أمراض نبتت من انحرافات في فترة حضارتنا، وصلت بنا إلى انحطاط فكري، وتخلف، وحمول، ومضاعفات أخرى؛ تراكت في ظل انفكاك ارتباطنا بديننا بشموله وانسجامه وصفائه وإيجابيته.

بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة

ونبدأ الآن في الإلماع إلى بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة بإذن الله. فالخطوة الأولى في عملية العودة إلى قطار الحضارة الإسلامية تنحصر في شرطين متكاملين:

في بعض ظروف الخلل لا نريد الذهاب إلى الطبيب المختص النطاسي، ونذهب إلى أطباء، نعرف بحواسنا ومشاعرنا أنهم يستوردون الأمراض التي ليست من أمراض بيتنا، ويصفون أدوية لأمراض غير موجودة. إنهم يفرضون علينا المرض، ثم يصفون الدواء المستورد. أما أمراضنا الحقيقية فهم أبعد الناس عن التعرف عليها وعلاجها.

وإنما مرضنا في هذا الجانب هو "الفقر العام" الذي مبعثه "الفقر العقلي" والجمود الحضاري الذي يجعلنا نترك الملايين من الأفدنة الخصبة الصالحة للزراعة في بلادنا؛ بينما يُصلح غيرنا الأرض الصحراوية. ثم نشكو قلة المحاصيل ونستوردها من بلاد

ف



١- أن تنهياً النفس المسلمة لتلقي الإسلام

٢- أن يعرض الإسلام كما هو من القرآن والسنة، لا من ضغوط الواقع المريض وبدون أن نلجأ إلى علم النفس الفردي، أو علم النفس الاجتماعي؛ فإننا نميل إلى أنه من الصعب التفرقة بين الإنسان كفرد والإنسان كعضو في المجتمع؛ وبالتالي فإن ما نريد تقديمه من علاج لا بد أن يلاحظ التيارات المراحمة، أي إنه بينما يحاول هئية النفس لتلقي الإسلام الصحيح، فإن عليه أن يلاحظ أن عمله هذا يتعرض كل يوم لضغوط معاكسة، وما لم يعد لهذا التراحم عناصر مقاومة فإنه لن يصل إلى تقدم في العلاج.

كما أن تفريغ النفس مما ورثته في حضارتها وطفولتها من مفاهيم، لن يتم إلا بوضع البديل الذي يطرد القديم. فالنفس لا تعرف "الخلاء المطلق"، وحبذا أن نركز على الجيل الجديد، الذي قد يسهل تقديم التصورات الصحيحة له عن طريق تقديم "ثقافة إسلامية" تنقل له الإسلام كما هو.

وإذا كان القرآن يقول لنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، فمن الواضح أن تغيير ما بالنفس لن يتم إلا عن تغيير ما بالفكر، وبالتالي فالثقافة الإسلامية الصحيحة بمجالاتها في التوجيه، والتربية، والأخلاق، وغرس النزعة الجمالية، والسلوك المنسق البناء... هي الخطوة الأولى لإيجاد "إنسان الحضارة الإسلامية" القادر على النهوض بها في دورة جديدة للتاريخ.

إن حضارتنا تقبل -بطبيعتها- أي انفتاح أو "عصرية" عقلانية في مجال الدراسات الطبيعية والكونية. وهي واثقة أن علماء الطبيعة وغيرهم لو التزموا المنهج الموضوعي، فلن يصلوا -و لم يصلوا حتى الآن مع أنهم في القمة- إلى شيء من معطيات هذه العلوم تستطيع أن تهز أسسها الفكرية.

وبالتالي، فهي ترى ضرورة الجمع بين "الثابت" (الأصالة)، و"المتغير" (نتاج الفكر). وترى أن ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة هو هذا "الثابت" الذي تبني فوقه الطوابق "المتغيرة".. ولا تعارض بين الثابت المتصل بالفطرة الممنوح من خلق الخلق، ويعلم جوهرهم، وبين المتغير المحض من اجتهاد العقل البشري الذي يتطور عاما بعد عام وقد يُرفض في جيل ما أثبتته أجيال كثيرة سابقة.

إن "الأصالة" شرط أساسي من شروط بقاء هويتنا وكياننا الداخلي في عالم يعج بألوان الصراع الحضاري. كما أننا في

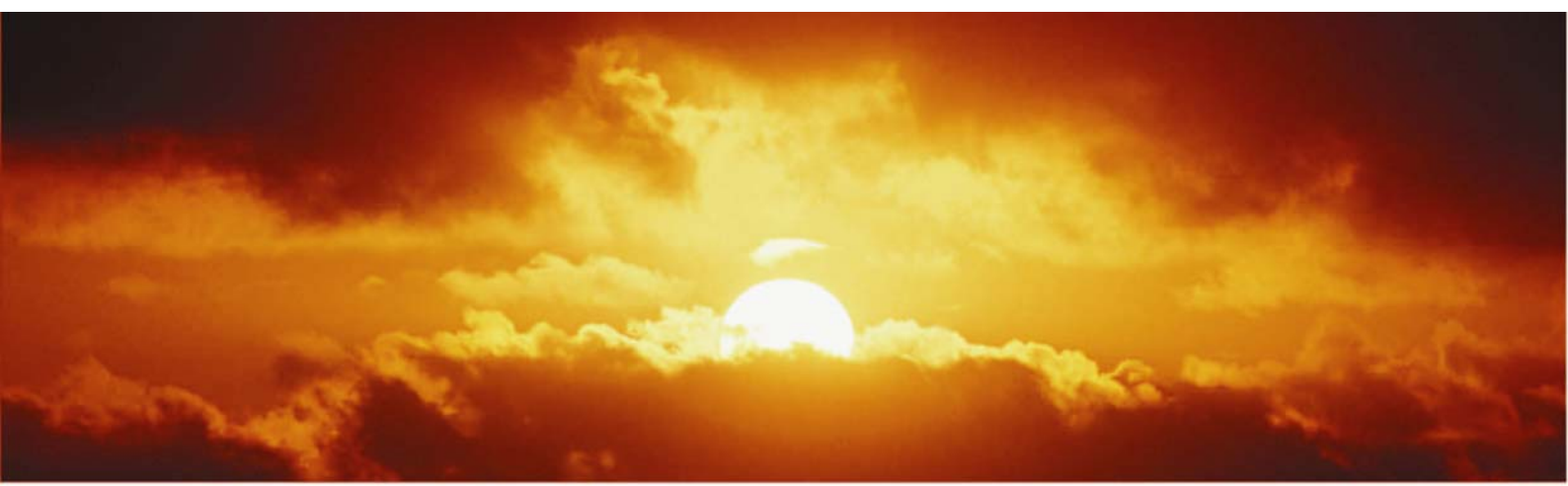
حاجة إلى "العصرية" لكي نستطيع الحياة مع أبناء هذا العصر، وبهما معا، ومتمزجين، نستطيع أن نسير في موكب التاريخ.

إن الاعتماد على ما تقدمه الأصالة وحدها، إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الماضي، كما أن الاعتماد على التجارب المعاصرة إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الخارج. وكلا النوعين من الاستيراد لن يكون مطابقا لما تحتاجه ذاتنا وظروفنا بكل أبعادها وأجزائها وتحدياتها. وبالتالي فإن استئناف حضارتنا الإسلامية في القرن الحادي والعشرين (الخامس عشر للهجرة) يقتضي أن ننطلق من فكر إسلامي أصيل؛ يعي جذوره الحضارية، ويعي التحديات التي يواجهها، والواقع الذي يعيشه؛ ليعبر عن الشخصية المسلمة، وعن غاياتها وأهدافها في الحضارة والتاريخ بكافة أعماقها وشمولها.^(١) وهو عمل لا يصنعه فرد واحد؛ لأنه لا بد أن يكون شاملا للجوانب الاجتماعية كلها سياسية واقتصادية وأخلاقية، بل هو مهمة المؤسسات العلمية والإعلامية والمفكرين الإسلاميين والحكام؛ بل وكل مهتم بقضية مستقبل هذه الأمة، ودورها الحضاري في التاريخ.

لقد واجه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه حضارتين انفتحتا على الدولة الإسلامية وقدمتا من التصورات والمشكلات والأوضاع والضغوط، ما كان كافيا لأن يهز قواعد الدولة الإسلامية الناشئة من أساسها. لكن عبقرية عمر رضي الله عنه وعبقرية الجيل الإسلامي الأول، وشعوره، وإيمانه بتفوق مبادئه، ووعيه بدور الأصالة في تكييف المعاصرة، وضمان السيطرة عليها لا الذوبان فيها.. هذا كله كان له أكبر الفضل في أن يستطيع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجيله الراشدي تحقيق الانتصار الحضاري أيضا -بعد العسكري- على الحضارات الجديدة، ونجح المجتمع المسلم في الإفادة من إيجابياتها، ونفي سلبياتها، وتم صهر هاتين الحضارتين في الوعاء الإسلامي، وأصبحتا جزءاً من الحضارة الإسلامية. وما فعلته الحضارة الإسلامية في موقفها من الرومان والفرس فعلته أوروبا في أخذها من الحضارة الإسلامية حين قطعت الجذور الإسلامية لما اقتبسته.

ولا يتردد مفكر كبير كـ "أرنولد توينبي" خلال أبحاثه الحضارية في الربط بين الحضارة الأوروبية والكثنية الكاثوليكية. وفي رأيه أن الحضارة عموما تنشأ عن الأديان، أي من "الشرارة الإلهية الخلاقة".

فلماذا لا ننطلق من ديننا وأصالتنا حاملين القرآن والعربية في



يد، وكل ما نستطيع الوصول إليه من إبداع علمي وفني في اليد الأخرى!

إن العالم المتحضر يقوده خلاصة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتع - كقيادة حضارية - بكل الإمكانيات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت "اليابان" - بعد أن دمرت في الحرب العالمية الثانية - إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وكلاء الوزارة وصلاحيات وكلاء النيابة، ووقّرت لهم كل إمكانيات البناء. أما طبقة "العلماء" أو "التكنوقراطيين" فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أيّ صفوة ممتازة في الحضارة السابقة. ولذا، فليس عجباً أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشارك في قيادة العالم، بعد أن كانت قد دمرت تدميراً شبه كامل بأسلحة أمريكا الذرية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن "تستشار" على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني في خطوات الطريق الحضاري للأمة المسلمة، على أن تكون هذه الطبقات موثوقة في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

ومن خلال الخططين المتكاملين - لا المتوازنين - أي خط القيادة الحضارية المتمثلة في الصفوة المختارة، وخط الرعاية المسؤولة أيضاً قَدْر حجمها "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (متفق عليه)... من خلال هذين الخططين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلم الحضارة بانسجام وتأزر.

"ولا ريب أن أعباء ومسؤوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المستقبل، والتطلع إلى الأعلى، تُلقَى بثقلها على كواهل النخبة والصفوة. وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة..

بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد". "وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحة الأفق، مدركة لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأساليب الحياة المستجدة. وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها، أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها؛ فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة".^(٢)

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجم تطلعات الأمة إلى واقع ملموس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها. وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر، وتمضي سفينة الأمة متخطية العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام ووعيتها الحضاري الكامل.

الدور العالمي

لن يستطيع المسلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية والمبعثرة في أكثر أركان فكرهم وحياتهم إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي، والانهيار النفسي الذي تُحدثه هذه المشكلات. ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسؤولية كونية وعالمية ليس تجاه أنفسهم ومجتمعهم فحسب؛ بل تجاه الإنسانية كلها. وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣). وكما يقول المفكر الهندي المسلم: "وحيد الدين خان": "إنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإسلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية".

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنسانية التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشريع، كما أن ما اكتشف من



أحسن إلى من أساء إليك... وبالدُّوق الرفيع قابل المفتقر إلى الدُّوق... فالأقداح بما فيها تنضح... وبعلو نفسك وسمو خلقتك عامل فقراء السلوك والخلق.

لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبتة في الأوحال والقاذورات". ولن نستطيع تتبع ما قاله كل المشخصين لحضارة أوروبا من أنبائها، وذلك كـ "الكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، أو "أرنولد تويني" في دراسته للتاريخ، أو "اشبنجلر" في كتابه "عن أقوال الغرب"، أو روجيه جارودي في كتابه "حوار الحضارات"، أو "كونستانتان جورجيو" في قصته "الساعة الخامسة والعشرون"، وهي الساعة التي يرمز بها "جورجيو" إلى أفول الحضارة الأوروبية وانهايارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق: "حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، وسيستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت؛ لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يُرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي. إنه لن يضيء بنور "النئون" خطوط القلب والفكر. إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي". إن الفكر الإنساني المتحرر المستوعب لأزمة الحضارة المادية التي تكاد تختنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري.. هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ؛ لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له ويستغلوا الإمكانيات المتاحة للدعوة في هذا العصر. ويتقدموا بقلب واثق مؤمن، وعقل قوي منفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم: ٤-٥).

(١) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر. الهوامش

(٢) د. عبد الحميد أبو سليمان، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض ١٩٧٩ م.

(٣) محمد علي طنطاوي: (الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل)، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض، سنة ١٣٩٩ هـ.

(٤) انظر بتصرف رسالة "إمكانيات جديدة للدعوة" نشر القاهرة.

حقائق الكون قد دحض بعض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، وأكدت - في الوقت نفسه - أحقية الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام. ومما قدمه العصر من وسائل العون للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية: (٣)

١- شيوع حرية الرأي والبحث.

٢- شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٣- شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي الذي قضى على الأسطورة والفكر الخرافي.

٤- توفر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبوعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل.

وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوروبية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

الأفول الحضاري

في ظل هذه الحضارة "لا ندري إلى أين نحن سائرون.. ولكننا نسير" كما عبّر الشاعر الأمريكي "بينيه". أما "رينيه دوبو" فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه "إنسانية الإنسان"، ويصف الحضارة الأوروبية في كلمات قليلة: "كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة عمتها أجهزة منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمق الآن بسبب الحياة العصرية التي نحياها. والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهدينا لمستقبل البشرية نفسها".

وعن "دوبو" نقل كلمة رئيس بلدية "كليفتد" متهمكها: "إذا

مَكْتَر

أ.د. حسن الأمراي

من وحي مكة تزدهي أشعاري
الوحي منها جاءنا متألّفا
لم يبق في الأرض الفسيحة بقعة
فانجابت الظلمات وازدهت الدنيا
فله بأرض الروم شمس حقيقة
"إقبال" لما مسّ خافقه ارتوى
لولاه لم تشرح حمامة أيكّة
ولما استرقّ العشق قلب فراشة
أختاه! إن نَعَشِق فإن إمامنا
من عَفّ في درب المحبة وارتدى
أختاه، نور الحق يهدي خطونا
غنيّت قلوب الناس يا أخت التقى
هل كان غير الحب يملاً دربنا
بني الحضارة عزة ومهابة

وتفيض لنا رائقاً أوتاري
فازدانت الآفاق بالأقمار
إلا ارتوت من دافق الأنوار
ألقاً، وزان الطيب خير جوار
وله بأرض الهند نور سار
عشقا، ففاض السحر في القيثار
أشواقها للدوح والأزهار
فهُوت مسبحة بقلب النار
قدما أتى العشاق بالأخبار:
حلّ التقى، أضحي بخير جوار
والنور في الصحراء نهر جار
جأ، فما اغتروا بسحر نضار
بالحسن، بالخيرات، بالإيثار؟
لكن حبّ الله خير شعار

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب



انسمعها لربنا



في ليلة طويلة ظلماء، ساقني الكرب إلى
أعتاب الخالق عِزِّكَ. وهناك لقيت من الأنس
أضعاف ما أملت من دنيا الناس وشؤونهم.
فغمرتني نشوة الدل لقيوم السماوات
والأرض، وفاض القلب بهذه النجوى:

مناجاة قلب كسير

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

وكيف يكون كسيرا وأنت النور الذي يشع في
حناياه والأمل الذي يخفق به ويعيش عليه!..
بل كيف لا يكون كسيرا وقد ذلّ لعظيم
والصر، وأقسى ما في كلّ منهما نعمة منك لا أستحقّها، ويد
جميلة لا قبل لي بأداء شكرها.
مولاي!

سلطانك، ودان لسابق حكمك وقضائك!..
بلاني به محض العبودية لك، والتجاؤه إليك، محض رعاية
وتوفيق منك. فلائهما أدين بالشكر، وعلى أيهما أبذل التحمل
لن نسيّني أفراح الدنيا، فإن عزائي بما فاتني منها عظيم ما
ألقيته من الأنس بذاتك، والأمل في رحمتك. ولن أبكتني صروف
الليالي والأيام فإن عزائي معها بكائي على أعتاب لطفك وبين

و



يدي ربوبيتك. وشتان بين دموع اعتصرتها الآلام من العيون،
ودموع استجابت لذلّ العبودية فاندردت تبكي لمن خلق الوجد
في القلوب، وأودع الحرقه في الدموع.

مولاي!

أشكرك على ما أوليتني من نعمة الصبر على البلاء، أم أشكرك
على ما أوليتني بذلك من سعادة القرب إليك ولذة المناجاة لك؟..
جلّت حكمتك يا سيدي، وصدق ما قاله الواصلون: "إنّ في كلّ
جلال جهالا، وفي كلّ ابتلاء منّة ولطفًا". وهل في اللطف ما هو
أعظم من انصراف العبد إليك، وتحوله عن الأغيار إلى ملازمة
بابك الكريم.

إلهي!

أي شيء يوحشني من الدنيا فقدّه بعد أن رأيتك أمامي،
وأنست بك في سري وجهري؟! بل أي منّة منك أعظم وأجلّ
من أن تُريح عني حجابا كان قد شغلني عنك، فشغلت بك عنه
بما أكرمتني من الاعتصام بك والتضرع إليك؟..

أجل يا سيدي... لقد ذهب موسى عليه السلام ليقبّس نارا،
فعوّضته عن ذلك بعظيم نجواك!.. نعم، إن القلب قد يتألم ولكن
ما ألدّ الألم الذي يذيق صاحبه طعم العبودية لك، وحلاوة الرضا
بحكمك!..

ولكني يا مولاي، أجدني قد تطاولت بهذا القول إلى مكانة
ليس لي شرف الدنو إليها. وما أنا -وحقك- في المزلة من يحسن
بهم أن يقولوا: "عذب بما شئت، غير البعد عنك"..
إني يا مولاي عبد إحسانك وفضلك، أفرّ من كل ضائقة إلى
ظلال رحمتك، وأرتمي هاربًا من كل بلاء أمام أعتاب جودك.

حسي أن أعلق في الخوف من كل كرب بنجوى أحبّ خلقك
إليك: "ولكن عافيتك أوسع لي". وبدعاء نبيك الكريم: ﴿رَبِّ إِنِّي
لَمَّا أَتَيْتُكَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (الفصل: ٢٤)، وبنداء رسولك الصابر
الأواب لربه: ﴿أَنْتَ مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣).

وكيف لا أعلق بفضلك وأطمع بعافيتك، وأنت الذي لم
تُقصني عن مائدة إحسانك في يوم من حياتي، ولم تقطع عني وابل
رحمتك في لحظة من عمري؟!.. أم كيف أركن إلى البؤس والضيق،
وأنت الذي عودتني العطاء، ونشأتني في ظلال الرخاء!؟..

أعوذ برحمتك التي غمرت بها وجودي كله، من أن تبدّل بها
شدة لا قبل لي بها، أو بلاء لا صبر لي عليه.

إلهي!

سألوني عن وجودك، فقلت لهم: "متى عرفتم أنفسكم
رأيتموه، ولولا ضلالكم عن كينونتكم كما افتقدتموه".

إن الذي ينظر إلى العالم ذاهلا من وراء منظار، جدير به أن
يفتقد منظاره ولا يراه، ومهما أدار عينيه فيما حوله فإنه لن يعثر
عليه، حتى يهتدي إلى ذاته ويتحسس المنظار القائم أمام عينيه.
وسألوني عن أقدر سرّ من أسرارك، فقلت لهم: "إنه
القلب!.. يخفق ويحسّ، ويحنّ ويئنّ، في عالم لا تطوله فيه يد
المال والمتاع، ولا الصنعة والخداع، ولا الدنيا وزخرفها، أو المادة
وقيمها!..

عروش الدنيا وممالكها، وبطشها وسلطانها.. كل ذلك أقلّ
من أن يقاوم خفقة من خفقات قلب محبّ!..

ونعيم الدنيا وأفراحها، وهوها ولذائدها.. كل ذلك أقلّ من
أن يخلق لمعة فرح في قلب حزين!..

يمضي الناس في معالجة مدنياتهم وحضاراتهم، ويتسابقون إلى
دنياههم وملاذهم، وتبقى هذه القلوب الخفاقة فرق ذلك كله، لا
تطوّرها يد الحضارة ولا تغييرها آثار المدنية.
فهل في أسرار ما صنعه الخالق شيء أقدر وأعجب من
القلب.

وسألوني يا مولاي عن أبدع مخلوقاتك وأجمل آثارك،
فخرجت بهم أحتلي مغاني الربيع!..

ولما توسطنا السفوح الخضراء، وهي ترتجّ وقموج بما انبسط
فوقها من أفانين الخضرة الفاتنة، والرياحين العطرة، والأزاهير التي
تذوب وراء جمالها العين، ناديت بأعلى صوتي: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ
رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٥٠)!!

انظر إلى آثار رحمة الله، كيف بدلت وحشة الأرض أنسا،
وحولت جديها اخضرارًا، وأخرجت من قسوتها رقة تشمل بها
النفس، وفتنة ينتشي بها القلب!..

بالأمس كنت تنظر إلى هذه الأرض وهي بلقع تلفّها وحشة
اليأس، واليوم تبعث العين فيها وإذا هي تفيض حياة ونضارًا،
وتردان برونق الأمل!..

بالأمس كان يُصر فيها العاشق الملتاع صدى لوحشته
وعذابه، واليوم يجلس إليها ليتخذ منها نجى أشواقه، وسمير آلامه
ومبعث آماله.



أجل.. ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٥٠).
مولاي!

هل كان فيما أبدعه صُنْعُكَ هذا - ما بين شتاء وربيع - إلا صورة رائعة أبرزت فيها - بعظيم إبداعك - كيف يتحول اليأس المحرق إلى أمل خافق منعش، وكيف تُنشأ الحياة المضيفة من جوف ظلام ميت!..

جَلَّتْ حِكْمَتُكَ وَعَظُمَتْ رَحْمَتُكَ يَا مَوْلَاي... مَتَّعْتَ أَعْيُنَ الْعِشَاقِ بِالْوُرُودِ الْحَمْرَاءِ، وَأَنْطَقَتْهَا لَهُمْ بَلُغَةٌ مِنَ الْجَمَالِ تَقْصِرُ عَنْهَا لُغَةُ الْكَلَامِ، حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عِزَاءٌ عَنِ الْجَمَالِ الَّذِي أَفْتَقَدُوهُ، وَسَلَوَى عَنِ الْأَمَلِ الَّذِي خَسَرُوهُ!..

أَنْعَشْتَ نَفُوسَهُمْ بِعَبْقِ الرِّيحِ حِينَ وَعَطَرَ الزَّهْرُورَ، حَتَّى يَغْسِلُوا أَفْتَدَهُمْ بِهَا مِنْ غِبَارِ الْكَآبَةِ وَأَلَمِ الْهَجْرَانِ!.. أَقَمْتَ لَهُمْ مِنْ مَرَأَى الْخُمَائِلِ بِكُلِّ مَا زَيَّنَتْهَا بِهِ مِنْ فِتْنَةٍ وَجَمَالٍ نَدِيمًا يَسَامِرُهُمْ وَجَلِيسًا يُؤْنِسُهُمْ وَنَجِيًا يَتَأَثَّرُ لَأَنَاهُمْ وَيَتَمَائِلُ لَأَهَاهُمْ!..

وَأَبْدَعْتَ لَهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ - يَا مَوْلَايَ - مِنْ جَوْفِ أَمِّهِمُ الْأَرْضِ!..

أَلَا بَوْرَكَتْ أَيْتَهَا الْأَرْضُ، مَصْدَرُ سَلَوَى لِأَبْنَائِكَ الَّذِينَ لَا تَزَالُ الْحَيَاةُ تَحْرُكُهُمْ عَلَى ظَهْرِكَ وَلِيُزِدَكَ اللَّهُ رَحْمَةً بِنَا وَحَنَانًا، يَوْمَ يَعِيدُنَا الرَّدَى مِنْكَ إِلَى الْأَعْمَاقِ.

وَرَأَيْتُ يَا مَوْلَايَ، أَشْتَاتَا مِنَ النَّاسِ يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ خِلَالَ تِلْكَ الْآثَارِ كَمَا تَسْرَحُ الدُّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ!.. وَقَدْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِكَ حِجَابًا، وَجَعَلُوا مِنْ نِعَمَاتِكَ شِغْلًا لَهُمْ عَنْكَ، وَمِنْ عَطَائِكَ سَبِيًّا لِكُفْرَانِهِمْ بِكَ!..

وَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي يَسْطَعُ فِيهَا خِيَالُ الشَّمْسِ، وَهُمْ عَنْ وَجُودِ الشَّمْسِ وَحَقِيقَتِهَا غَافِلُونَ!.. وَرَأَيْتُهُمْ قَدْ فُتِنُوا بِعَبْقِ الرِّيحِ حِينَ وَصُورِ الْوُرُودِ وَالزَّهْرِ

أَيْتَهَا الرِّيَاضُ النَّضْرَةُ!..
أَيْتَهَا الْوُرُودُ النَّاعِمَةُ الضَّاحِكَةُ!..

أَيْتَهَا الرِّوَائِحُ الْمَسْكُورَةُ الْعَبْقَةُ!..
لَشَدَّ مَا يَطْرِبُنِي وَيُنْعِشُنِي أَنْ أَجِدُنِي غَرِيقًا فِيْمَا بَيْنَكُمْ، مَلْفُوفًا بِتَحَنَانِكُمْ، وَلَكِنِّي مَا انْتَعَشْتُ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنَ الْأَمَلِ!..

الْأَمَلُ!.. أَقْرُوهُ فِي تَمَاوِجِ الْعُشْبِ مَعَ الرِّيحِ السَّارِيَةِ، وَأَجِدُهُ فِي انْبِعَاطِ رَوَائِحِ مَنَعِشَةِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْوُرُودِ النَّضْرَةِ، وَأَسْمِعُهُ مِنْ حَفِيفِ الْأَغْصَانِ وَتَصْفِيقِ أَوْرَاقِهَا الرَّقِيقَةِ الْخَضِرَةِ.

أَجَلُ!.. إِنَّهُ الْأَمَلُ الَّذِي صَوَّرْتَهُ يَدَ الْخَلْقِ، إِذْ أَنْبَتَكُمْ مِنْ طَوَايَا أَرْضٍ مَظْلَمَةٍ جَامِدَةٍ؛ أَبْدَعَ حَيَاةَ الْأَرْضِ مِنْ مَوْتِهَا، وَأَخْرَجَ زِينَةَ الدُّنْيَا مِنْ كَآبَتِهَا، وَأَظْهَرَ أَرْقَ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ قَسْوَتِهِ وَصَلَابَتِهِ!..

يَا مَنْ اسْتَوَى فِي خَلْقِهِ الْأَمَلُ وَالْيَأْسُ، وَتَلَاقَى فِي تَقْدِيرِهِ الْمَوْتُ مَعَ الْحَيَاةِ!..

يَا مُنْشِئَ النُّورِ مِنَ الظُّلَامِ، وَمَبْدِعَ الْفَرَحِ مِنَ الْأَحْزَانِ!..

يَا مَنْ هَذَا سِرِّ لَطْفِكَ وَطَعْمِ إِحْسَانِكَ وَحَنَانِكَ!..

يَا إِلَهِي!

كَيْفَ أَبْأَسُ إِذَا وَأَنْتَ رَبِّي، أَمْ كَيْفَ لَا يُنْعِشُنِي الْأَمَلُ وَأَنْتَ

حَسْبِي!.. ■

(٩) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

درويش في بلاد "الأناضول"

أدب

أديب إبراهيم الدباغ*

س

سالك طريق... مُسْتَهَام لا

يفيق... حامل هوى... مُتَعَبُ خطو...

شاردُ لُبٍّ... أخو سفر... أشعثُ أَعْيَرُ.. ما

استظلَّ بظلٍّ... ولا بأرضٍ أقام... ولا بمنزلٍ نزل... إذا حلَّ

ارتحل... فلا أراح ولا استراح... على نفسه علا... وسلاّم

الروح ارتقى... وبسنا أشواقه اهتدى... وبساط الأكوام

طوى... وفضاء الكشف والعيان اعتلى...!

فادُع - يا درويش - همتك... فالطريق لا زالت طويلة...

مُنداحَة الآفاق... مهوَلَة الأمداء... فامتط متن عزيمتك...

واركب جواد إرادتك... وإياك أن تنصب.. وخيائك وسط

الطريق تنصب... وعن عصا ترحالكَ تتحلّى... فذاك موتك...

فذاك موتك...!

يا "درويش"... يا قلباً ذابَ حتّى عَذَبَ... يا فؤاداً هام

وعشق... يا حزناً تعالي وتزكى... والعالم احتوى...

والإنسان بكى... وعلى ضياعه نأح وانتحب...!

يا "درويش"... يا حامل حيرة الإنسان من قديم الزمان... مَنْ

أنا...؟ وأين أنا...؟ ولماذا أنا...؟ وتظل وراء الجواب تجري...

قطعت الفيافي والقفار... وجبت البحار... وعلوت الجبال...

وسألت الشجر والزهر... والنجم والقمر... وغبت في غاب

الأفلام... ونخضت في مداد العقول والأذهان... فزدت ضياعاً...

وفضت حيرة... فلا أنت عرفت... ولا أنت وصلت...! ولكن

صوتاً من ذاتك يأتي: "اشحذ ذهنك تسمع الجواب... وتدرك مبعث

السؤال...

لك وحدك أستطيع أن أفضي بجميع مكونات صدري... لك

وحدك أفتح أبواب كنوزي... وبين يديك وحدك، أنثر دُرر

علمي ومعارفي...!

سمعت مرّة "درويش الأناضول" يحدث فيقول:

"من الطريق تعلمت كيف أعيش الخطر... وأمشي على

حاجز الموت... آنساً بمجير العواصف... ومستضيئاً ببوارق

العودة... نابتاً عيش الهامدين... رافضاً سلامة العاجزين...

أولئك العوامين فوق الخواء... الناكسين عن مطاولة الأعماق...

المشفقين من السباحة ضدّ التيار...!

ومن الطريق تعلمت كيف أنقذ روحي من الهاوية... وكيف

أخرق بها السبع الطباقي... وكيف أرتقى الأسباب... وأعلو على

الأسى... وأستعذب الألم... لأحظى بالوصل وأنال المراد...!

ومن الطريق تعلمت كيف أخاف نفسي... وأفرق من

طغيان وجودي... وأحذر من ربوبية أناني... وأتجنب خيالات

وهمي... وشطحات فكري... ومزاعم هواي... فلا أرى في

الكون غيري... ولا في العالم سواي... وكأني أنا الفكر والفكر

والمفكر به... ولا شيء غير ذلك...! وهذه هي الطامة الكبرى!

وعلمتني الطريق إذا كبوت نهضت... وإذا تأخرت تقدّمت...

وإذا فترت هجّت... وإذا حمدت لبيب روعي أوقدت... وإذا نثت



إليه تعود

يا سالك الطريق
يا رجلُ يا مقدام...
لا تبال الهموم والأحزان...
ما دمتَ على الطريق سائراً،
وإليه ماضياً... فلا تبال الصعاب،
فأنت إليه عائد...
فإذا ما وصلت... أخذك إلى كنفه،
ومسح آلامك... وكفكف دمعك،
وفي حظيرة قدسه آواك ونعمك...
وبمحبتة أكرمك...

بقيدي كسرت... وإذا احتجبتُ خرقْتُ... وجهلي قهرتُ...
وسفينتي أطلقتُ... ونفسي في هادر الروح قدفتُ... وربِّي
ناديتُ... أيدني -يا رب- وثبتني... وعلى معرفتك أعني...
وعنك لا تبعدني... وبالقرب منك أبقي... وزدني صحواً
ووعياً... ومسكنةً وفقراً... فكيف تبارحني الحياة وأنتَ حياتي...
وكيف يخونني حزمي وأنتَ حزمي وقوتي...؟!

ألف مرة... في اليوم واللييلة... أموتُ في العشق وأحيا...
أوجدُ وأفنى... يا رماد قلبي المحترق... اجمع ذراتك... وقم من
حديد... فؤاداً فتياً... عاشقاً أبدياً... واقطع مسافات الوجود...
واضوه تحت جناحك... وعُدْ إلى نفسك منقياً عن جواهر
علومك... وارتفع ثم ارتفع... لتصبح نزيل علوم السماء...
وأسرار الأرض...!"

سريت حيث سرت بك دروب "الأناضول"... طرقت
أبواب الجامعات غير هباب... واعتليت أسوار المدارس
والمعاهد... وجئت الأسواق... واقتحمت المقاهي والمطاعم
والمعامل... فأثرت استغراباً واستنكاراً... وألف سؤال وسؤال
دار في الأذهان... ما رأينا في الدراويش درويشاً كهذا... ماذا
يفعل عندنا... ولماذا يخرق صفوفنا.. ويقتحم علينا مجتمعاتنا...؟
يا ويحه... يا ويحه...!

ويأتي من بعيد صوت... انتبه يا "درويش"...! فالليل ساج...
والنجم في الأفق باك... البس جناح الليل... وبجلبابه تجلبب...
ثم قم تضرع... وألطف الله تشرب... فالمألأ الفرعوني بك
يأتمرون... ليُبعدوك أو ينفوك... وخارج التُخوم يقذفون...!
تجرع يا "درويش" سمو أحزانك... واعتنق طهر آلامك...
واستمطر بركات غربتك... فقد انكسرت أقفال العقول...
وتحطمت أغلال النفوس... وانكشف المستور... وسطع النور...
وانفجر الينبوع... وأشرق سناء الكتاب المهجور^(١)... من القلب
المبعوث^(٢) رحمة للعالمين... ■

(١) كاتب وأديب / العراق.

الهوامش

(١) المقصود: القرآن الكريم.

(٢) المقصود: الرسول ﷺ.



مراكز النشاط الاقتصادي في الدولة العثمانية

د. ناظم إيتيه *

والمدارس والجوامع فقط، بل برزوا أيضاً في وضع تقاليد عريقة للتجارة وللمؤسسات التجارية، فبنوا المراكز التجارية والخانات والأسواق الكبيرة ومراكز كبيرة على الطرق الرئيسية للتجارة لاستراحة المسافرين والتجار والقوافل. وذلك لتشجيع التجارة وتوسيعها وفتح الأبواب أمامها. وكان هناك مراكز تجمع فيها البضائع التجارية في الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء وتقوم قيمها وتثبت أسعارها، أي كانت تعمل عمل البورصة في أيامنا الحالية. وكان يطلق على هذه المراكز التجارية اسم "بدستان" (bedesten).

إن شَبَّهنا الدولة بجسم مخلوق حي، فإن بقاء هذا الحي مرتبط بعمل أجهزته المختلفة مثل الجهاز التنفسي وجهاز الدوران، وجهاز الإفراغ... الخ، بالإضافة إلى توفر الشروط الضرورية الأخرى. فإن نظرنا إلى الدولة العثمانية من هذه الزاوية، نجد أنها لم تنشغل فقط بالحياة الدينية والأمر العسكري والحربية والتعليم والتربية فقط، بل كانت تملك تقاليد تجارية ومؤسسات تجارية عريقة. وطوال أكثر من ستة قرون لم ينشغل المسؤولون عن إدارة الدولة بالحياة الدينية وبناء القلاع والحصون والثكنات العسكرية



السمة المعمارية للمدن "العثمانية-التركية" مثلما كانت المراكز والمباني الدينية والتجارية الأخرى الكبيرة (كجوامع السلاطين الكبرى) تحمل سماتها الخاص بها. كانت هذه المباني تحتل مركز المدينة وترمز إلى أنها مدن عثمانية.

كانت الـ "بدستان" في الدولة العثمانية مربعة أو مستطيلة الشكل. لها قبب مغطاة بالرخام، وتنقسم إلى أجزاء وأقسام لتكون صالحة لأفضل استخدام واستعمال، ولها جدران سميكة من الحجر، وترتفع في وسط المدينة وكأها حصن أو قلعة، وتشرف بأبراجها على المدينة من عل، ويمكن رؤيتها من بعيد والتعرف عليها. كان لها في العادة باب أو بابان، وأحياناً أربعة أبواب رئيسية. وكانت مفتوحة على الشارع أو الشوارع الرئيسية للمدينة. كانت الـ "بدستان" مقسمة من الداخل إلى ٤-٢٠ قسماً مربع الشكل، ولكل قسم قبة فوقه. ويدخل الضوء من نوافذ صغيرة موجودة في أعلى الجدران. وفي خارج بناية الـ "بدستان" تلتصق جدران الدكاكين بها، كما تنتظم الدكاكين ومحلات العمل على جانبي الطريق الخارج من الـ "بدستان". كما توجد حول هذا المجموع دكاكين مربعة أو مستطيلة الشكل.

تكون مداخل الـ "بدستان" في العادة مرتفعة وفخمة، كمداخل المعابد، وجدرانها الحجرية مزينة بأشكال فنية وزخارف. أبوابها من الحديد أو من خشب الأبنوس ومزخرفة كذلك بزخارف حديدية أو خشبية. ودكاكينها مصنوعة جيداً، والبناية تحتوي على دكاكين وعلى المخازن العائدة لها. وقبائها مغطاة بالرخام لحفظ البناية من تسرب مياه الأمطار والثلوج. لذا فإن بنايات الـ "بدستان" كانت تحمل طابعاً عثمانياً متميزاً. ولكونها مبنية من الحجر كانت أيضاً رمز المتانة والقوة والعمر الطويل.

وفي الخانات كانت السلالم موجودة على يمين ويسار المدخل مباشرة وتؤدي إلى الطابق الثاني بـ (٢٠-٣٠) درجة. وفي القسم الأمامي من الطابق العلوي يوجد "رواق"، وفي القسم الخلفي توجد حوانيت أو متاجر. وبينما تغطي القبب أعلى الرواق تكون سقف الحوانيت على شكل أقواس وقناطر. وكل حانوت عبارة عن غرفة واحدة. أما الحوانيت في الأركان فيكون كل منها عبارة عن غرفتين أو ثلاث غرف. ويوجد أيضاً رواق أمام المتاجر في الطابق الأرضي. وتحت هذه الحوانيت والمتاجر، توجد مخازن لخزن البضائع. وفي هذه المخازن توجد صناديق حديد تحفظ فيها الأمتعة الثمينة. ويذكر "أوليا جلي" الإصطبلات الملحقة

تأسست هذه المراكز أولاً في مدينة "بورصة" وفي "أدرنة" ثم انتشرت منهما إلى أرجاء الدولة العثمانية. يأتي "بدست" بمعنى "السوق"، و"بورصة"، والمركز التجاري". ويأتي جذر هذه الكلمة من العربية والفارسية من كلمة "بازستان"، أي المكان الذي تُباع وتُشترى فيه الأقمشة. كما أطلق على "بدست" اسم "قيصرية" أحياناً، ومعناها "داخل القلعة". كانت "بدستان"، مركز التجارة بين المدن وكذلك بين الدول، كما كانت بمثابة المراكز التجارية في المدن، فتعد من أهم الأبنية في كل بلدة.

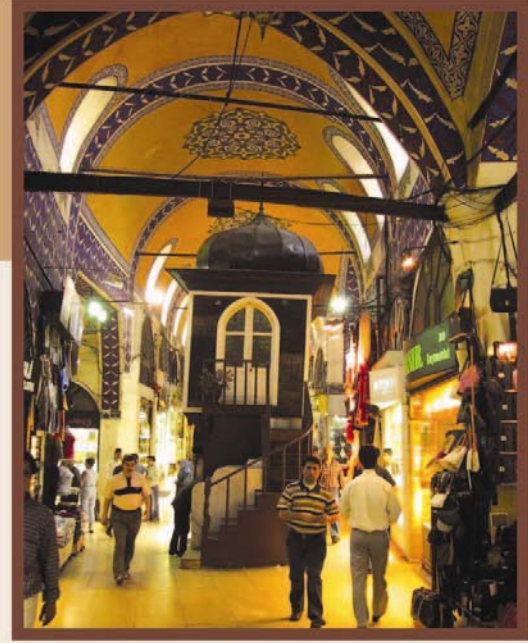
التجارة الدولية

كانت التجارة الدولية في القرن الرابع عشر بيد البرتغاليين والجنوبيين (البنادقة). وكانت البضائع الثمينة تتجمع في الموانئ، حيث تتم التجارة فيها عن طريق النقل البحري بواسطة السفن. كانت الدولة العثمانية على وعي بأن ازدهار التجارة في أي بلد يساعد على ازدهار ذلك البلد، وتحلفها يعني تخلف ذلك البلد. لذا قامت بإحياء طريق الحرير التاريخي، وأمنت بذلك تحول التجارة إلى الطريق البري مرة أخرى. لذا بنت الخانات -أي الفنادق- ومراكز التجارة على الطرق التجارية المهمة. وأنشأت هذه المراكز في داخل المدن أيضاً. واستطاعت الدولة -بتحقيقها الأمن والأمان للتجارة والتجار في أراضيها الواسعة وتيسير سبل التجارة أمامهم- السيطرة على التجارة الدولية بدءاً من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

البدستانات تختلف عن الخانات وعن "كروان سراي" (وهي أبنية محمية ومقامة على الطرق الرئيسية لاستقبال القوافل). فقد استعملت الخانات بدءاً من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لتأمين حاجات المسافرين والتجار. وأطلق اسم "بدستان" في هذا العهد على هذه الخانات أيضاً. ولكن اقتصر اسم الـ "بدستان" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (عهد نضوج الدولة) في جميع المدن الكبرى على مراكز البورصة والتجارة فقط، واقتصرت الخانات على أماكن استراحة المسافرين.

"بدستان" والعمارة

كما قلنا فإن الـ "بدستان" كانت مباني تجارية ظهرت عند ظهور الدولة العثمانية وتوسّعها. ولم يكن فيها المعماري يشبه مثيلاته في حضارات الأناضول وفي الحضارة البيزنطية القديمة، كما لم يكن يشبه "القيصرية" وهي الأسواق المفتوحة وغير المسقفة والتي كانت موجودة في جنوبي شرق الأناضول؛ بل كانت تحمل



ومع أن جزءاً من إيجار الـ "بدستان" والخانات كان يذهب إلى باقي هذه البنايات، إلا أن الجزء الأعظم منه كان يصرف لبناء الجوامع والمدارس الدينية والكتليات ومراكز توزيع الأطعمة مجاناً للفقراء، أي كان يصرف لأعمال البر والخير. فقد صرف إيجار الـ "بدستان" التي شيدها السلطان "محمد جلّي"، في مدينة أدرنه عام ١٤١٨م، لتعمير جامع "أسكي جامع"، وإيجار الـ "بدستان" التي شيدها السلطان محمد الفاتح وكذلك إيجار سوق "قبالي جارشلي" للصرف على أياصوفيا التي حوّلتها من كنيسة إلى جامع. وصرف إيجار الـ "بدستان" التي شيدها السلطان بايزيد الثاني في مدينة بورصة لتعمير جوامع إسطنبول ومراكز مساعدة الفقراء.

التجارة والنشاط الاجتماعي

لم يفصل العثمانيون الحياة التجارية عن الساحات الأخرى للحياة. واستفادوا في تأسيسهم هذا التوازن بين مناحي الحياة من خزين التجارب الإسلامية الطويلة الأمد، والتي بدأت من عهد المدينة المنورة في حياة الرسول ﷺ، واستمرت طوال عصور عديدة وفي بلدان إسلامية متعددة.

كان التجار في العهد العثماني على نوعين: التجار المتجولون، والتجار المقيمون في المدن. فكانت مباني الـ "بدستان" محل عمل التجار المقيمين في المدن ومركزاً لتعيين أسعار البضائع أيضاً، أي كانت تعمل عمل البورصة الحالية. كما كانت دائرة لاستيفاء الضرائب. وكان الموظفون الرسميون الذين يعيّنون الأسعار ويستوفون الضرائب يقيمون هنا. لذا لم يكن يسمح بزيادة الأسعار خارج الحد المعقول، أي لم يكونوا يسمحون بالتعامل بـ "السوق السوداء".

كانت كل "بدستان" تشكل نواة الأسواق الكبيرة. وكانت جميع أنواع السلع والبضائع تباع وتشترى فيها مثل أسواق "سوبر ماركت" في أيامنا الحالية. كان بعض هذه المراكز التجارية مراكز لأنواع معينة من البضائع ولمنتجات أصحاب مهنة معينة. مثلاً هناك مركز للصياغة، أو لبيع السجاجيد أو الأقمشة أو البهارات أو الكتب أو للعطارين، وكان يوجد حولها يباعو الحاجيات

بهذه "الخانات"، حيث تستريح فيها الحيوانات التي تحمل البضائع والناس في القوافل. والإصطبل الموجود في "قوزاخان" في مدينة "بورصة" يعدّ نموذجاً لإصطبل الجمال، حيث استعمل القسم العلوي منه لاستراحة المسافرين ولخزن البضائع. وتوجد مواقد في غرف الطابق العلوي، وترتفع المداخل من جانب القبة. وتوجد مiazza في وسط باحة الخانات، وفي المؤخرة يوجد مسجد.

مبادئ عمل مراكز الـ "بدستان"

كما توجد حالياً قواعد ومبادئ معينة في المراكز التجارية وفي البورصات وفي المناطق الصناعية التعاونية حددتها القوانين، كذلك كانت لمراكز الـ "بدستان" في الدولة العثمانية قواعد يجب العمل بها. فهي تؤسس أولاً إما بفرمان من السلطان أو بأمر من وزير. وعندما يتم بناؤها تصبح مركز جذب للتجار الأغنياء الذين يرغبون بالتعامل في مراكز تجارية آمنة. ويقول المؤرخ التركي المعروف "حليل إنجليك": "كان من القواعد المعروفة أن الـ "بدستان" تعدّ مركزاً للتجارة في المدينة، وكذلك مركزاً للتجارة بين الأمم." لذا نرى أن أسواق الـ "بدستان" ومراكزها في الدولة العثمانية كانت طوال مئات السنين محلاً لزيارة آلاف التجار القادمين من إيران والهند وأوروبا، ومحل تعارفهم ولقائهم وإقامتهم، ومحل بيعهم وشرايتهم. وقد أنشأ السلطان محمد الفاتح بفرمان منه، "بدستان إسطنبول" والسوق المحيطة بها بعد الفتح مباشرة، لتكون مركزاً تجارياً كبيراً وآمناً على طريق الأناضول - الروملي وللمدينة إسطنبول كذلك، حيث استطاعت هذه السوق استيعاب الفعاليات التجارية الكبيرة آنذاك.





إذا تجوهر الإيمان في القلب أنقلب إلى منجم حب ومحبته...
فأنتى لمعدن الكراهية أن ينجم فيه... فكما الشيطان في
الكراهية مغمور فأنت - يا مؤمن - بالمحبة معجون...



عنده مدة معينة. فإن لم يظهر صاحبها تسلم لبيت المال. كما كانت تودع عنده أموال اليتامى حتى يبلغوا سن الرشد. كما كانت الـ "بدستان" تقوم بوظائف شبيهة بوظائف البورصة التجارية في أيامنا الحالية (بورصة القطن أو بورصة الزبيب مثلاً).

كانت الـ "بدستان" في بعض المدن مركز عمل التجار الذين يقومون بتجارة الأقمشة الثمينة. وكان كل منهم يملك فرماً من السلطان وأمرًا من القاضي كضمان وتأييد له عند قيامه بهذه التجارة. وكانت أي تجارة سرّية تجرى خارج الـ "بدستان" تُعد تجارة غير قانونية ومنافسة غير شريفة بالنسبة للتجار الموجودين في الـ "بدستان" الذين يدفعون الضرائب بانتظام. فمثلاً، حدث في عام ١٦٠٩م، أن طرق سمع تجار "بدستان" أن بضائع معينة (مثل العطور) تباع سرّاً في منطقة "غلطة" إلى العطارين، فتقدموا بالشكوى إلى السلطان وتمت معالجة الأمر. أما سيطرة تجار الأقمشة الذين هم أحد عناصر الاقتصاد المضبوط رسمياً، فقد استمرت حتى أواسط القرن السادس عشر، حيث صدر قرار بالسماح لتجارة الأقمشة خارج الـ "بدستان" ما لم يكن هناك قرار من الحكومة بالمنع.

نعتقد أنه من المفيد إجراء تحليل مقارنة بين الـ "بدستان" التي كانت تحتل مكاناً مرموقاً في الحياة التجارية في الدولة العثمانية، وبين المراكز التجارية الحالية. فهذا مفيد، ليس من الناحية التاريخية فقط، بل من الناحية التجارية والاجتماعية كذلك. فمن ناحية، هناك فائدة في ضبط الفعاليات التجارية ومراقبتها، وأن تكون هذه الفعاليات على أساس مشروع وتُراعى فيها الحقوق؛ ومن ناحية أخرى، فإن عدم السماح للشخص بالعمل التجاري (إن لم يكن أهلاً له ولم يدرّب بعد عليه) أيضاً من الأمور التي يجب مراعاتها. ■

اليومية من الأغذية كالقواكه والخضروات والطحين والملح... الخ. أو من أنواع الوقود كالخطب والفحم.. أو من المواد الخام كالدهون والزيوت والأصباغ.. وكذلك كان أصحاب الحرف الأخرى كالحياطين وأصحاب المطاعم وصناع الخزف.. الخ، يزاولون نشاطهم هنا. كما كانت هذه الأسواق تضم الأماكن الضرورية لحاجات الناس كالمساجد وأماكن الوضوء وأماكن القراءة والمقاهي والخلّاقين والحمامات... الخ.

كان أصحاب الحرف المختلفة يعملون في الـ "بدستان" كعائلة واحدة، وكانت لهم منظمات ذات تقاليد عريقة ومستقرة مثل نقابة "الأخوة" (Ahilik). ولم يكن يؤخذ إلى هذه النقابة من أصحاب المهن من لم يمر بمرحلة التدريب والتعليم التي تتدرج من مرحلة المتعلم الناشئ أو العامل المبتدئ إلى المتدرب إلى المعلم (المحترف). كان يتم تعليم الشباب المبتدئين الحرف المختلفة في ظل تدريب وتعليم يأخذ بنظر الاعتبار التدريب المهني والتجاري مع الحرص على ترسيخ مفاهيم أخلاقية أهمها أن يكون كل منهم إنساناً محباً للخير وجاراً حسن الخلق، أي يتلقون تدريباً وتعليماً أخلاقياً أيضاً. وكان يتم ترقية هؤلاء الشباب من صنف "المبتدئ" إلى صنف "المتدرب"، ثم إلى صنف "الأستاذ" أو "الأسطة" بالتعبير السائد آنذاك في مراسيم احتفالية. وهكذا كانت "بدستان" تنشئ كادرها وتحافظ عليه.

كانت للـ "بدستان" أربع وظائف مهمة:

- ١- تعيين أسعار البضائع.
- ٢- فرض الضرائب على البضائع واستيفائها.
- ٣- تخزين البضائع والسلع الغالية والتمينة العائدة للدولة أو للتجار، مثل الذهب والجواهرات والأقمشة الغالية، والوثائق المهمة، حيث كانت هذه البضائع تحت ضمان الدولة، فتخزن بشكل آمن، ثم تعرض للبيع.
- ٤- كونها مقرّاً للتجار المحليين، حيث كانوا يقومون بأنشطتهم التجارية، ومنها كانت تنطلق قوافلهم إلى البلدان الأخرى.

كان لكل "بدستان" سرّيةً أمن خاصة بها، وشخص مؤتمن. وكانت الأموال المفقودة (أي الأموال التي فقدها أصحابها) تبقى

(*) كاتب ومؤرخ تركي. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

فلسفة العمر

أ.د. فريد الأنصاري*

وكالشياطين -وقد قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: ٣٦-٣٨) - إلى الكائنات التي تعمر الشهر والأسبوع واليوم، كبعض الحشرات، من مثل النحل، والذباب، والفراس. فلو نظرت إلى ما يشعر به المعمر مئات السنين أو آلافها وهو ينظر إلى عمر الإنسان لوجدته يتأسف على شدة قصره، ويأسى على الإنسان الذي لم يمد له في عمره إلا قليلا، وهو لا يدري أن عمره هو أيضا بالنسبة إلى من هو أطول عمرا قصير جدا.

قصر الأعمار

ولو نظرت أنت -باعتبارك الإنساني- إلى أعمار الحشرات التي تعيش شهرا أو أسبوعا أو يوما، لأشفقت عليها من شدة قصر ما تعيشه من لحظات. ومما أرويه عن علماء الأحياء، أن ضربا

من أهم مصادر الجمال في الإسلام عقيدة اليوم الآخر، لكننا لن ندرك جماليتها إلا بعد معرفة ما "العمر"؟ هذا الامتداد الزماني الحاد المحدود،

الذي يحد فترة حياة الإنسان، من الولادة إلى الممات.

العمر هبة إلهية كبرى.. إنه تجلٍّ من تجليات الحياة، بيد أن حقيقته نسبية ككل حقائق الحياة الدنيا. فليس فيه -إذا تفكرت- طويل وقصير، وإنما هو قصير كله. فمن حيث منطق الأشياء وطبائعها: كل ما ابتدأ لينتهي لا يكون إلا قصيرا. أليس كل الناس يموتون بعد سنوات من تاريخ ميلادهم؟! نعم، سنوات، وإن هي إلا سنوات، لا مئات السنين، ولا آلافها.

ثم إن المقارنة النسبية بين أعمار الخلائق المختلفة تبين لك نسبة الطول والقصر باعتبار آخر. فمن الخلائق التي تعيش مئات السنين أو آلاف، من غير البشر، كالأشجار، والجبال ونحوها،



الانتظار؛ فكأن وقع الدقائق تلك في نفسك عدة أعوام. وعندما تحلّ اللحظة السعيدة، تشعر -رغم طول مدتها بالنسبة إلى لحظات الانتظار- أنها قصيرة جدا، فكأن وقتها يتصرم منك تصرما. الزمن نسيي.. وتلك هي حقيقة الأعمار.

الطول والعرض في الأعمار

والعمر -عند التفكير في الخلق الإلهي- هو حقيقة الإنسان. إذ ليس المرء إلا بداية ونهاية! ساعة ولادة فساعة وفاة. ولكن.. شتان شتان بين عمر وعمر! ليس ذلك باعتبار الطول والقصر؛ إذ الأعمار كلها قصيرة كما أسلفنا، ولكن باعتبار العرض والضيق، إذ قد يكون العمر طويلا -حسب العد البشري النسيي- ولكن يكون ضيقا من غير سعة. كما قد يكون قصيرا بالاعتبار نفسه، ولكنه عريض جدا، حتى لكأنه لا يكاد ينتهي أبدا. وبيان ذلك بالمثال التالي: هَبْ أن العمر عبارة عن طريق يقطعها

الإنسان، لها امتداد طولي وآخر عرضي. والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطول؛ لأن ذلك هو المتعلق بمفهوم الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل)، ولكنه قلما ينتبه إلى العرض؛ لأن هذا إنما يتعلق بالأعمال والمنجزات خلال كل فترة من فترات الزمن. فالإنسان في سيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو دون أن ينتبه إلى عرض الوقت، فيلتهم من طوله ما هو مقدّر له، فلا يشعر ببركة العمر مهما طال، حسب العد البشري النسيي. ونوع ينتبه إلى العرض؛ ولذلك فهو إذ يخطو الخطوة الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها. وهكذا يبقى يخطو على عرض الطريق حتى يستوعب كل عرضها. وحينئذ فقط، ينتقل إلى أمام ليخطو خطوة أخرى على طولها، ثم يستأنف بعد ذلك خطوات العرض. فهو إذن يسير طولاً وعرضا. إن مفهوم العرض رمز إلى استغلال الوقت استغلالا كاملا. لأن الناس -في الغالب- يعيشون اللحظة الواحدة، بما لا يكفي لعمارها من الأشغال والأعمال. وربما أمضوها بالفراغ، وذلك هو ما يسمى بقتل الوقت. والعرض هو استفاد كل الحيز الزمني للحياة بالمنجزات الإيجابية، والأعمال الحية التي تملأ رصيد العبد بالحياة الحافلة بالخير. وتلك هي "بركة العمر" المرجوة في الأدعية الماثورة. وإني إذ أذكر هذا المعنى أذكر وصف الله للجنة بقوله

من الفراش يعيش دورته البيولوجية الكاملة، في مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة. يكون بيضة، ثم يخرج منها، فيدبّ دودة، ثم يلتف حول نفسه في غشائه، ليطيّر بعد ذلك فراشة، ثم يبيض ما شاء الله له ليخلف ذريته بأمان، ثم يموت. كل ذلك في أربع وعشرين ساعة! وعندما كنت أقرأ أن بعض الحشرات يعيش ثمانية أيام على الأكثر، كان يتبادر إلى ذهني أن تلك الحشرة إذا طال عمرها إلى اليوم الثامن، تنشّد كما أنشد الشاعر العربي القديم:

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشِ

ثَمَانِينَ حَوْلًا -لَا أَبَا لَكَ- يَشَامِ!
واليوم الواحد بالنسبة إلى وجدان الحشرة كعشر سنوات كوامل، لا فرق. ولو نظرت إلى ما أخبر به الله عن الزمان الكوني في القرآن، لأدركت أن الأعمار كلها بالفعل قصيرة.

الزمان الكوني وتجلياته

والزمان الكوني صور وأقسام شتى، يتجلى بعضها في بُعد "المُعْجَازِي"، وهو نوعان: الزمان الأمري والزمان الملائكي. فالزمان الأمري هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)، و"الزمان الملائكي" هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤). كما يتجلى في صورة "الزمان العندي" وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧). وهو زمان "الملائكة العندية" المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٦). ثم "الزمان الأخروي" وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدا.

وفي ذهنك، أنت أيها المعمر مائة عام أنك عشت عمرا مديدا. نعم تماما كما عُمِّرت الحشرة ثمانية أيام، أو أربعاً وعشرين ساعة.

ولك أن تتفكر في نسبية الزمن عند تقلّب أحوال النفس الإنسانية، بين شتى ضروب الانتظار مثلا.. عندما تنتظر حلول لحظة سعيدة لم يبق بينك وبينها إلا لحظات يسيرة من دقائق معدودات.. تشعر أنها تمر ببطء شديد، وتقلق من "طول"

سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١)، ذلك أن الجنة زمن خالد، فأنت تعيش اللحظة الواحدة مرات عديدة، لا تنقضي أبدا. كما أن نعمها الوفيرة لا تستنفد أبدا. فذلك هو العرض ذو المعاني الجميلة.

أما الطول فهو يوحى بالنهاية والزوال، ومن هنا لم تكن للأعمار قيمة من حيث طولها أو قصرها. وإنما البليد من الناس من يتشبث بالطول الدنيوي. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٩٤-٩٦).

ذلك أن جشع الكفار وجهلهم بحقيقة الحياة، يجعلهم ينظرون للعالم من خلال بُعد واحد، هو البعد الطولي. وهو بعد خداع، لأن الألف سنة فيه كالיום لا فرق، ما دام الطول ينتهي إلى حد. والعدد في الوحدات الزمنية الدنيوية - كما رأيت - نسبي، ورب حشرة عاشت بضع لحظات، أو بضعة أيام، أزكى عمرا من عمر ألف سنة. ومتى كان الإنسان هو المقياس الحقيقي لوحدات الزمن؟!

العمر الطولي والعرضي

ومن هنا ذم الله الحياة الدنيا، من حيث هي طول يُتلهف فيه على المتع الزائلة، والمكاسب الفانية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)، وقال ﷺ: "ما لي وللدنيا..؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها!" (رواه الإمام أحمد والترمذي).

والأحاديث في ذم الدنيا والركون إليها كثيرة جدا، تملأ أبواب الرِّقَاق من كتب الحديث النبوي الصحيح. وهي لا تخرج في معناها عن التنبيه إلى خطورة النظر القاصر إلى الزمن، والتكالب على استنفاد لحظات العمر في عد طول لا يمنع من الموت شيئا. والجميل في الأمر أن العرض لا ينقضي بوفاة الإنسان، بل يمتد

حتى بعد وفاته؛ فلا تحده يشعر ذلك الشعور اليأس الذي يزلزل نفسية الكفار، إذ يشعرون عند ذكر الموت بهول "الفناء".

وقد رأينا كثيرا من علماء الأمة الإسلامية ممن لم يعمر من حيث الطول إلا ثلاثا وخمسين سنة، كالإمام الشافعي رحمه الله، ولكن ها أنت تراه - بعد وفاته بأكثر من ثلاثة عشر قرنا - يملأ الدنيا بالحياة. فهذا مذهبه الفقهي يملأ عرض الدنيا وطولها، وهذه كتبه العلمية تملأ كل أعمار الناس. فهل عاش الشافعي بضعا وخمسين سنة فقط؟! إنه نظر قاصر لمفهوم الزمن إذن.

وكذلك الشأن بالنسبة للإمام النووي رحمه الله، الذي لم تزل مصنفاته هي مادة التربية الإيمانية لملايين المسلمين، ككتاب "رياض الصالحين"، وكتاب "الأذكار"، و"الأربعين النووية"، و"شرح صحيح مسلم". فهذا الرجل العظيم قد عاش عمرا مباركا عريضا جدا، في خمس وأربعين سنة فقط.

ومن المعاصرين الإمام حسن البنا رحمه الله الذي استشهد عن عمر لا يتجاوز الثلاث والأربعين سنة، ولكنه لم يزل يمتد في حياة الأجيال امتدادا قويا، لا تحده مقاييس الأعمار الفانية.. إنك تراه هنا وهناك حيا، يحرك الأحداث المعاصرة، ويهر الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية هذا في كل مكان. أولئك قوم عرفوا كيف يعيشون عرض العمر، ولم يأبها لطوله الكاذب.

وقد وجدنا النصوص القرآنية والحديثية تنبئ المسلمين إلى هذا المعنى العظيم، حيث يملك المرء معه أن يعيش حتى التخمة، حياة حافلة بالحياة. يقول الله ﷻ في العبد يستثمر وقته في العمل الصالح: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)، وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: "إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة" (متفق عليه).

ويموت الإنسان لكن يمتد عرض عمره بعده. قال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (رواه مسلم) وقال أيضا: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ." (رواه مسلم). وذلك كل فعل الخير الذي لا ينقطع أثره بالموت.



الحياة الآخرة

ثم إن الإيمان بالحياة الآخرة يشعر المسلم بأن الموت إنما هو مَعبر إليها، فلا يحس في وجدانه العميق بأنه ينتهي بالموت؛ فيعيش الحياة بذوق آخر، ملؤه العمل والأمل في أن تكون أخراه أفضل من دنياه..

فيا لبؤس عمر يعيشه الإنسان وهو يشعر بأن الموت هو آخر المطاف! انظر إلى هذه الإشارة الإلهية في وصف نفسية الملاحدة المنكرين للبعث، إذ يقتلهم اليأس، ويدمرهم القنوط.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

فانظر إلى هذا الزلزال النفسي، والشعور بالدمار والخراب في الحياة! الذي يملأ صدور الكفار، واليأس القاتل الذي يخنم على أحلامهم، لما يعيشونه من فقر شديد في العلم بالله. بينما يملأ هذا حياة المسلم سعة ورحمة، بسبب ما يتيح له من آفاق أرحب، للنظر في الحياة والكون والمصير. وفقدانه يعني فقدان التوازن النفسي حتما في التعامل مع العمر.

هذا الرصيد الوحيد لدى الإنسان، الذي عليه أن يوظفه ليسعد أو ليشقى. ودون هذا الفضاء الواسع الرحب لا يوجد إلا اليأس القاتل، والخراب المدمر، وهو حال كل منكر للبعث من الكفار والملاحدة أجمعين. وما ذلك إلا لأنهم - كما وصفهم الله تعالى - ﴿قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْغِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (المتحنة: ١٣).

ومن هنا فأنت ترى أن الباب الفسيح الذي يمد عمر المسلم بالاتساع، إنما هو مفهوم "الغيب".

هذا المفهوم الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية بأكملها. فهو الذي يملأ حياة العبد العامل آملا، ويغمر وجدانه حياة متدفقة أبدا، لا يحدها أجل، ولا تقطعها وفاة! ■

(٩) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

هذا المخلوق العجيب

يا إنسان...

يا صنعة الله...

يا مجمع الأسرار...

يا مَصَّبَ الأنوار...

يا مناراً مشعاً...

للتائه والمختار...

أنت لأخيك الإنسان مرآة...

على مرآة قلبه تنعكس صورتك...

وعلى مرآة قلبك تنعكس صورته...

فبينكما ألف رسالة ورسالة...

وسؤال وجواب... وعتاب واعتذار...

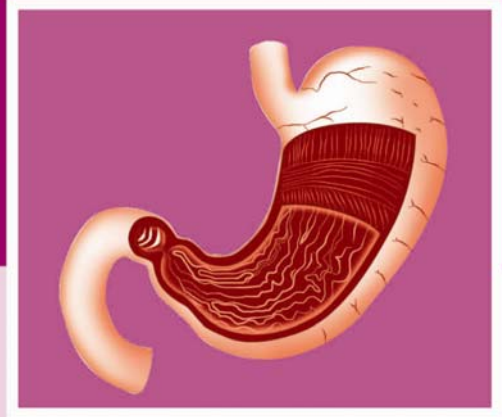
ولكن أنى للنائم أن يدرك

ما يقول القلب للقلب...؟

من كان قلبه بالحق تعالى موصولا كيف يكون حبل وده مع الناس
مقطوعا...؟ وكيف تغشاه وحدة... أو تنزرد به وحشة...؟

أنا معدة عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*



حبيبي عبد الله!..

ح

عندما كلمك جاري، القلب الموجود فوق، وعرفك بنفسه سمعت ما قاله لك، وربما ساورك بعض الغضب بسبب حديثه، لكن أعتقد أن كل كلامه لصالحك أنت. فهو من جانب قدم لك نصائح تم صحتك، ومن جانب آخر وجه نظرك إلى الخالق العظيم الذي وهب لك القلب ففتح بذلك آفاق تفكيرك. وقد أعجبني كلامه جداً، وسررت منه، لذا ساورتني الرغبة -أنا المعدة- للتحدث إليك والتسامر معك. وأعتقد أنك إن أصحت السمع فستستفيد من الناحيتين المادية والمعنوية.

أين مكاني؟

دماغ ثان

بشكل دائم. ولكن نظراً لوجودي في تجويف ذي جدران مرنة جداً -مثل التجويف البطني- فإنني أستطيع الاحتفاظ بما تأكله وتشربه حتى إتمام عملية الهضم. وهكذا تستطيع تناول الطعام في وجبات معينة للتفرغ بعدها لمشاغلك الأخرى. قد يبدو شكلي العام بسيطاً جداً في نظرك. لذا ترى بعض من يتكلم عني يقول مهوئاً من شأني بأني عضو يشبه الكيس. وإذا أردت أن تعرف قدرتي ومقدار أهميتي، فاسأل من أصيب بالقرحة أو بسرطان المعدة. ذلك لأنني إن تعطلت أو أصابني الخلل أو المرض ضاقت أمامك الدنيا، فكل شربة ماء أو لقمة طعام ستكون عذاباً لك، فلا تجد طعاماً لحياتك ولا لذة.

تتألف جداري التي تشبه الكيس ظاهرياً من أربع طبقات من أنسجة خاصة. تتكون الطبقة الخارجية من نسيج قوي، وتليها طبقات من العضلات العرضية والطولية، تليها طبقة رخوة تحتوي على الغدد، والطبقة الأخيرة طبقة داخلية رقيقة من نسيج "ظهاري" (Epithelium). طبعاً لا يجوز أن ننسى شبكة الشرايين الدموية التي تغذي جدران هذه الطبقات العضلية، وكذلك شبكة الألياف العصبية التي تنتشر في كل أجزائها. وشبكة الألياف العصبية هذه التي أمتلكها معقدة إلى درجة

أنا أشغل مكاناً في القسم العلوي من تجويف البطن وتحت التجويف الصدري. ولكي لا يتولد أي ضرر بيني وبين جاري الموجودين فوق، القلب والرئة، فقد وضع خالقنا ستاراً داخل القفص الصدري، أي وضعهما داخل قفص عظمي. ولكن لا تتصور أنني غير مصانة، فقد صان ربنا كل واحد منا بالشكل المناسب. فلو كان هناك سقف من العظام فوق لوجدت صعوبة في الأكل والشرب. ثم نظراً لعجزي آنذاك من خزن ما تأكله، كنت تضطر آنذاك لتناول وجبات طعام بكميات قليلة ولكن





مذهلة. فأنا أملك شبكة كبيرة من الأعصاب بحيث أكون مطلعة على ما يجري في جميع أنحاء الجسم وكأنني دماغ ثان. فلو أصيبت قدمك بشوكة، أو لو حزنت لأمر ما، أو فرحت كثيراً وضحكت تأثرت بكل هذه الأمور. وهذه الشبكة من الأعصاب حساسة جداً بحيث يمكن أن تؤثر على حركتي وعلى إفرازات غددي، وقد تعطلها أو تخربها.

عمل الشبكة العصبية

بفضل هذه الشبكة العصبية أبدأ بالسيطرة على حركتي وعلى إفرازات غددي بدءاً من قيامك بشم رائحة الطعام والتهيؤ للأكل، وهكذا أنقذك من أي ضيق بعد تناول الطعام.

كذلك فأنا سهلة القيادة، إذ تستطيع -إن أردت وعقدت العزم- أن تروّضي لطراز جديد من الحياة. فهناك من تعود على تناول ثلاث وجبات من الطعام يومياً، وبعضهم على وجبتين، وآخرون على وجبة واحدة فقط. أما نصيحتي لك فهي الاعتدال على وجبتين في اليوم.

ولكي تتجزأ الأغذية التي تتناولها ويتم امتصاصها من قبل أمعائك وتكون جزءاً من جسدك لا بد أن تمر بي. لأنه لا تتم تجزئة كيميائية كبيرة في الفم: كل ما يحصل هو تفتت الطعام إلى قطع صغيرة بطريقة ميكانيكية وتحولها إلى قوام لين يمكن قبوله من قبلي. فإن استعجلت في الأكل وبلعت الطعام دون مضغ ودون تليين كافيين أتعبتني جداً. كما أن اللقم الآتية إلي بهذا الشكل قد تقوم بخدش جدران قناة المريء، وقد تدميها. والأفضل هو مضغ كل لقمة ثلاثين مرة. ولكن معظم الناس لا يفعلون هذا مع الأسف، فبعد مضغ لمرتين أو ثلاث يرسلون الطعام لي. وهم لا يحسون بأنهم شعبوا، لذا يأكلون كثيراً فيخلّون بتوازني.

وأما إذا أكلت ببطء فإني فوراً أحذك حاجتك من الطعام سأقوم بإخبار المركز المختص في الدماغ بذلك ليقوم بقطع شهيتك.

وهكذا تكون قد وفّرت عليّ التعب من جهة، وتجنبت الإسراف من جهة أخرى. وعندما تأكل بسرعة أكون قد امتلأت

قبل أن أجد الفرصة لإرسال الجزئيات التي تبعث إشارات الشبع، فلا يبقى عندي مكان لا للماء ولا للهواء.

أنواع الخلايا

هناك ثلاثة أنواع من الخلايا في الغشاء المخاطي الذي يبطنني، أي في الغشاء الذي يكون على تماس مع الأغذية. النوع الأول منها يقوم بإفراز حامض الهيدروكلوريك "HCl" القوي جداً.

يقوم هذا الحامض الذي يستطيع إذابة حتى الحجر بتجزئة جميع البروتينات ومنها اللحم، ويقتل الجراثيم الداخلة مع الأغذية والسوائل. ولو لم يوجد هذا الحامض لما نشطت غدد إفراز أنزيم مادة الببسين "Pepsinogen". وهذا الأنزيم لا يعمل وحده، لذا لا يُفرز عندما لا يوجد طعام في جوفي. وعندما يبدأ الطعام بالدخول إلي يبدأ بإفراز هذه المادة مع إفراز حامض الهيدروكلوريك معاً.

وقد تتساءل: ألا تتضرر جداراني بمثل هذا الحامض القوي وهذا الأنزيم الهاضم للبروتينات؟ الجواب: لا يقع مثل هذا الضرر لأن الخالق الرحيم يغطي -بآلية دقيقة- جداراني بشكل

مؤقت بمادة واقية. والخلايا التي تفرز السائل المخاطي الواقي تقوم بعملها هذا قبل إفراز الحامض وقبل إفراز الأنزيم المفتت للبروتينات، أي يعمل هذا السائل المخاطي عمل طبقة الحص أو الإسمنت التي تصون الجدران المبنية من الطابوق من التأثيرات الخارجية. ومع هذا فبتأثير الحامض والأنزيم أضحي كل يوم بـ (١,٥) مليون خلية. وهذا يعني ضياع طبقتي الداخلية كل ثلاثة أيام. ولكن أحمد الله الذي أعطاني قدرة كبيرة على تجديد خلاياي حيث أستطيع تجديد طبقتي الداخلية بخلايا جديدة.

متى يحصل العطب

أحيانا يحصل عطب أو خلل في إفراز هذه المادة الواقية مما يؤدي إلى تآكل خلايا الجدران بتأثير الحامض والأنزيم، ويبدأ نضح الدم من الشرايين الدموية الموجودة في الطبقة الداخلية. وهذا يشير إلى إصابتي بـ "القرحة"، أي ظهور الجروح وبدء النزيف في جداري. ولا تظهر هذه القرحة عند الأشخاص غير الحساسين، لذا فلا تتأثر المنظومة العصبية عندهم. أما الأشخاص الحساسون فنظراً لكونهم يتأثرون كثيراً فإن منظومة الإفراز تتأثر عندهم بسرعة، لذا يتعرض هؤلاء للإصابة بالقرحة بسهولة. لذا فإن من الأصوب العيش باعتدال وتعدل دون الانحراف إلى القلق والخوف والحزن الشديد أو الفرح الشديد، أي مواجهة الأحداث بصبر. فإن راعيت العيش بتوازن فلن تتسبب في تخريب نظام الإفراز عندي. أنت لا تستطيع تحريك العضلات التي تشكل نسبة كبيرة من سمك جداري مثلما تحرك مثلاً عضلات يديك أو رجلك. تعمل هذه العضلات اللاإرادية في هذه المنظومة العصبية دون أن تشعر أنت بها، فهي تتلقى أوامرها وتعمل دون إرادة أو شعور منك.



ومن أهم خواص هذه العضلات أنها تعمل ببطء، ولكنها لا تتعب بسرعة. ونظراً لأنها قابلة للتمدد بسهولة، فإنك إن لم تكن متوازناً في الأكل تمددت وبرزت إلى الخارج مثلما تبرز شُرْفَة البناية. إن نفسك المائلة إلى الإسراف والجشع تضرني كثيراً، وتجعلني أداة ضارة لك. إذن فعليك ألا تستجيب لأعيب النفس، وتكون متوازناً في طعامك وشرابك، وإلا حوّلتني إلى مخزن نفايات وجلبت الضرر والبلاء على نفسك.

الأمر التي أكرهها

أودّ أن أعلمك ببعض الأمور التي أكرهها، وعلى رأسها المأكولات والمشروبات الحارة جداً والباردة جداً. فكلّ منهما يخرب عمل أنزيمي ويعرقل عملها.

وأفضل درجة حرارة تعمل فيها هذه الأنزيمات هي درجة الحرارة القريبة من حرارة الجسم، أي بدرجة حرارة ٣٦-٣٧ مئوية.

إن هناك الآن شبهات قوية من أن الأطعمة الحارة جداً تسبب في إصابة خلاياي بالسرطان. أما الأشياء الباردة جداً فإن تلتكها أو تبقيها فترة في فمك لتدفئتها قليلاً ثم تبتلعها تكون قد حفظتني من الإصابة بالبرد، لأنني إن أصبت بالبرد تقلصت عضلاتي وفقدت توازني فلا أستطيع أداء مهمتي.

أقوم بمخض وتحريك الأطعمة التي تأتيني من البلعوم وأعالجها بالأنزيمات حتى تتحول إلى حالة سائلة، ثم أدفعها -بعد أن تتحول إلى القوام المطلوب- تدريجياً نحو الأمعاء الموجودة تحتي والمسماة بـ "الإثني عشر".

فأنا أشبه الدنيا التي توصف بأنها دار ذات باين، لأنني لا أحتفظ بشيء في جوفي، بل آخذ الأغذية من جهة، ثم أرسلها من جهة أخرى. لم يوضع بيني وبين قناة الطعام (البلعوم) أي باب،



الأحاسيس الروحية وضعفها. والحقيقة أن الإنسان يكفيه ما يقيم به صُلبه. لذا فإن لم تصبح أسيراً للذة الأكل، وتذكّرت صاحب النعم والأفضال **فَكَفَّكَ**، وبقيت في دائرة الحلال، وأكلت ما يكفيك مع أداء الشكر... كنتُ أنا مرتاحة هنا وأنت مرتاحاً في الدار الآخرة. بالنسبة لي لا فرق بين قطعة حلوى تجتاز فمك إليّ وقطعة خبز، لذا فكن مراقباً لما يدخل في فمك لكي تتجنب الإسراف وتراكم الشحم والسمنة.

المعدة بيت الداء

قد يضحك بعضهم من هذه النصائح الأخيرة ويقولون: "لذة الأكل من نعيم الحياة.. كما يجب أن نتغذى جيداً"، لذا فلا يهتمّون ولا يلتفتون إليها. ولكن الطب الحديث والمختصّين بعلم الأغذية وصلوا ومنذ سنوات عديدة إلى النتيجة نفسها التي ذكرتها لك، حيث يقولون الآن: "أجل!.. أنت محقّة!.. حَسْبُ ابن آدم لُقيّات يقمن صُلبه".

إن ملء المعدة سبب مهم للعديد من الأمراض. إذن فإن كان الأكل طريقاً للذة فهو طريق إلى الأمراض أيضاً.. إذن فالهمم والضروري هو التوازن في التغذية. فهذا هو ما يوصي به العلم الحديث.

وبفضل التغيير الذي تقوم به في السّنة شهراً واحداً (رمضان المبارك) في نظام الأكل فأنا وجميع مساعدي نقوم بتجديد أنفسنا، وكأننا دخلنا في مخيم أو في دورة تدريب. وهذه حاجة ضرورية لنا لندخل موسماً جديداً بعد نيل الراحة اللازمة لنا. وقريناً سيحلّ موعد المخيم من جديد، لذا فأنا أنتظر حلول هذا الموعد لأخذ قسطاً من الراحة.

عزيزي عبد الله!

أنت في حاجة إليّ للحصول على الغذاء وعلى الطاقة اللازمة، لأنني إن لم أكن موجودة لا يعمل حتى قلبك، كما يجب أخذ الغذاء الكافي لتأمين الطاقة لكل عملية بيولوجية. فأنا سيف ذو حدين. يجب ألا تهملني كثيراً، وألا تدلّني أيضاً كثيراً. وأنا أنتظر منك مثل هذا التصرف المتوازن. ■

﴿ جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.﴾

لذا أستطيع إن لزم الأمر أن أرجع بعض ما يدخل إلى جوفي إلى الخارج بعملية التقيؤ.

وقد يبدو التقيؤ في الوهلة الأولى شيئاً غير مستحسن، لذا فقد تتساءل: لماذا لم يوضع باب أو حاجز هنا؟ ولو كان ما تقوله صحيحاً فأنا أسألك: ماذا ستكون حالك إن تناولت عن طريق الخطأ سُماً أو غذاءً فاسداً أو متعفناً؟ كان من الضروري آنذاك إما تنظيف معدتك أو إجراء عملية لك حياتك. وقد تموت قبل إجراء تلك العملية. بينما أستطيع بقابلية التقيؤ هذه إخراج ما أشعر بضرره، ويمكن كذلك مدّ خرطوم إلى جوفي لتنظيفه.

فهل فهمت الآن لماذا لم يوضع باب أو حاجز بيني وبين القسم العلوي في؟ وعلى العكس من هذا فقد وضع باب بيني وبين الأمعاء لكي لا ترجع الأطعمة الموجودة في الأمعاء إليّ مرة أخرى، ولكي لا يختلّ الجو الحامضي الموجود عندي. لأن الأنزيمات التي تعمل في الأمعاء ذات طبيعة قاعدية أو حيادية وتعمل في وسط قاعدي. والجو الحامضي الموجود عندي يخرّب عمل أنزيمات الأمعاء ويخل به. فلو تدفقت إليّ أملاح كيس الصفراء المفترزة من الكبد أو أنزيمات البنكرياس، لاحتلت الأمور عندي تماماً، وقد تم هزيمة جو مناسب في الأمعاء لظروف عمل تلك الأنزيمات والإفرازات.

اسمع نصيحتي

عندي لك توصية أخرى يا عبد الله!.. إياك أن تمارس الرياضة وجوفي مملوء. ذلك لأن طبقة العضلات السميكة لجداري تحتاج إلى كمية كبيرة من الدم، لذا يتم سحب مقدار كبير من الدماء من الأجزاء الأخرى من الجسم ويُرسَل إليّ. فإن مارست الرياضة في هذا الوقت فلن تتم تغذية الأجزاء الأخرى من جسمك بالدم بشكل كاف، وهكذا سيتعب قلبك.

سأفشي لك سراً آخر: أنت تقترف خطأ كبيراً كلما تزيد من إرسال الطعام إليّ دون مبالاة بأي شيء ودون الاهتمام بالحلال والحرام؛ لأن صحتك الجسدية وصحة حياتك الروحية تتناسب عكسياً مع حجمي. فإن زدت من حجمي زاد حجم الدهون المتراكمة في قلبك وفي شرايينك، وتعرّقل عمله وعملها. ويقول العديد من أهل العرفان بأن الأكل الكثير يؤدي إلى صداً

أعراض الوحي المنزل على ذات النبي المبجل



د. رابع المغراوي*

ظ

وهل كان الوحي مجرد تفهيم وتعليم في سرعة وخفاء كما يدل على ذلك معناه اللغوي، ليس له أعراض أو آثار يراها المشاهد؟

أم كانت له أعراض غاية في الوضوح والبيان حفظها تاريخ الرسالة الإسلامية الخالدة، وتراث النبوة المحمدية الباقية؟ ذلك ما سأحاول رصده من خلال هذه المقالة الوجيزة، فأقول:

الوحي لغة هو "الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقته إلى غيرك"^(٢)، ومن معانيه أيضا الإعلام في خفاء، ومنه الوحي ومعناه العجلة والسرعة.^(٣) ويمكن اختصار معاني الألفاظ التي ذكرت في القول بأن الوحي هو الإعلام الخفي والسريع.

أما اصطلاحا فهو ما يوحى الله تعالى إلى أنبيائه ورسله من كلام أو معنى أو غير ذلك مما يعلمونه في خفاء وسرعة.

والوحي هو الركن الأساس الذي تستند عليه النبوة بحيث ينعدم مدلولها بدونه، وهو المصدر الوحيد لكافة الأخبار الغيبية، والمبادئ العقدية، والأحكام التشريعية، وهو الذي يميز بين الإنسان الذي يعتمد فكره ورأيه، وبين الإنسان الذي يصدر عن ربه بأمانة.^(٤)

ظل محمد ﷺ يواظب على ما اعتاده من لذة خلوته، ومناجاة ربه في غار حراء، شهرا من كل سنة، إلى أن أشرق عليه اليوم الذي تحقق فيه الاصطفاء، وتأكد فيه الاجتباء، ليكون آخر لينة في صرح العناية الربانية، وآخر جوهرة في نظم الرعاية الرحمانية، استجابة لسنة التعهد المرعية، تفقدا للبشر بالتوجيه والترشيد والهداية، مباشرة ليظلوا على صلة بخالقهم وبارئهم ورازقهم، قال عليه الصلاة والسلام: "مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَأَجْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعَجِبُونَ مِنَ الْبُنْيَانِ بِالْبَيْتِ فَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتُ هَا هُنَا لَبَنَةً فَيَتَمُّ بُنْيَانُكَ؟" قال النبي ﷺ: "فَكَنتُ أَنَا اللَّبَنَةُ"^(٥)

في مغارة من مغارات جبل حراء الذي سيصطلح على تسميته بـ "غار حراء" تحقق الاصطفاء بالمخاطبة عن طريق ما اصطلاح على تسميته بـ "الوحي"، فما هي الحمولة الدلالية لهذا اللفظ الغريب على بيئته، الجديد على معجمه؟

وهل كان الوحي يأتي على صورة واحدة، أم كان على صور متعددة؟

وإذا كانت له صور متعددة، فما حقيقة تلك الصور؟



والوحي هو آية النبوة الكبرى، ومظنة التصديق بها، وهو عماد اليقين الذي لا ينبغي أن يتطرق إليه الشك، إلا أثار كل ما ترتب عليه مما ذكر.

كما أن الموقف من الوحي تصديقا أو تكذيبا هو الفرقان بين الإيمان والكفر، والفصل بين الإسلام والشرك.

وهو أيضا سنة من سنن الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٤).

ولذلك يتعين على الباحث عن الحق في أمر الوحي أن يستقصي حقيقته، ويتأمل صورته، ويستكشف آثاره، من خلال النظر فيما حفظ في هذا الشأن من نصوص غاية في الدقة، وآية في الحجة، تبعث على التعجب والذهول، زيادة في البيان، وإمعانا في ترسيخ اليقين في الوجدان، مظنة الإيمان المكين، وأساس الاعتقاد المتين، الذي يبعث على الثقة والتصديق ويرقى بصاحبه إلى مقام الإحسان. فكيف كانت آثار هذه التجربة الفريدة على النبي الكريم، والخيرة اليتيمة على محمد عليه الصلاة والسلام؟ وما هي كافة مظاهر هذا الأمر على جسمه الشريف عليه الصلاة والسلام؟ لقد كان حقا لعملية استقبال الوحي آثار مادية ظاهرة، وأعراض فسيولوجية بادية للمشاهدة والمعاينة يدرکها كل من حضر، وهو ينظر إلى النبي الكريم وهو يكابد استيعاب التنزيل، ويعاني استقبال الترتيل، نذكر منها الأعراض الآتية:

١- تصيب العرق

قالت عائشة رضي الله عنها: "ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيُفَصَّمُ عنه وإنَّ جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا"، (٥) وهذا يدل على المعاناة الشديدة الناجمة عن ضخامة الجهد الذي كان محمد ﷺ يبذله أثناء هذه العملية.

٢- تبدل لون الوجه

من الأعراض التي كانت تعترى جسمه الشريف عليه الصلاة والسلام، تغير لون بشرته، وقد جاء في ذلك نصوص متعددة دلت على الحقائق الآتية:

أ- احمرار الوجه

وقد جاء هذا الحديث الصحيح الذي روي عن يعلى بن أمية حيث ورد فيه: "... فإذا النبي ﷺ محمر الوجه..." (٦).

وأعتقد -والله أعلم- أنه ربما قد لا يكون هناك تلازم بين عرض احمرار الوجه وعرض تصيب العرق، إذ قد يحمر الجسم دون أن تكون هناك إفرازات عرقية، كأن يتصبب الجسم عرقا دون أن ترتفع درجة حرارته.

ب- الرُبْدَة

وقد دل على ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم عن عبادة بن الصامت: "أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربّد وجهه". (٧)

والرُبْدَة في اللغة هي الغيرة، ومن معانيها السواد المختلط، أو الحمرة التي خالطها سواد، وتربّد وجهه: أي تغير من الغضب، وقيل صار كلون الرماد، وتربّد الرجل: إذا تعبّس، وتربّدت السماء: تغيّمت. (٨)

وحقّ لرسول الله ﷺ أن يعتريه الكرب العظيم لهيبة المقام، وهول التجربة، وجسامة التبعة، يتفاوت الكرب بتفاوت الواجبات والمعاني والمقامات والأحوال التي تتحدث عنها الآيات والسور، أكد هذا ما روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "كان إذا نزلت على رسول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا نزلت عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها". (٩)

وزيد بن ثابت رضي الله عنه يتحدث عن موضوع خبرته به عظيمة، لاضطلاله بأمانة تلوين وحي السماء بأمر من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

٣- تتابع الأنفاس وترددها

وهذا مما قد يدل على أن عملية التلقين والإلقاء في الرُّوع لم تكن عملية ذهنية صرفة، وأن العملية، مهما كان محل الأمر الملّقن الذهن والدماغ والقلب بصفة عامة كما تقرره اللغة، فإن لها تأثيرا على أجهزة كثيرة من جسم النبي الكريم عليه السلام، إن لم نقل الجسم برمته، وبخاصة جهاز التنفس الذي له علاقة بإمداد الهواء، ودقات القلب، التي هي أظهر الأمور وأبينها في المواقف التي لا تطاق. هذا طبعاً إذا لم يكن مراد الله عز وجل إظهار الأعراض إمعانا في الإتيان بالحجة البالغة لإقامة الدليل.

٤- الغطيظ

روى الإمام البخاري عن يعلى بن أمية، أنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليتني أرى نبي الله يوحى إليه، فلما كان بالجعرانة^(١٠)، وعلى رسول الله ثوب قد أظلم به، ومعه ناس من أصحابه منهم عمر، إذ جاءه رجل عليه جبة متضمخة بطيب، فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جبة بعدما تضيخ بطيب؟

فنظر النبي ﷺ ساعة، ثم سكت فجاءه الوحي فأشار عمر إلى يعلى: تعال، فجاءه يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه يغط كذلك، فمكث كذلك ساعة، ثم سري عنه، فقال: "أين الذي سألتني عن العمرة آنفا؟" إلى آخر الحديث^(١١).

والغطيظ: صوت تنفس غير عادي يحدثه النائم عندما يكون على هيئة غير مريحة، ينبعث من الخنجرة والخيشوم، أو عندما يلم به كابوس مزعج.

٥- انبعاث الأزيز ناحية رأسه

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: "كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يُسمع عند وجهه كدوي النحل، فأُنزل عليه، فمكثنا ساعة، ثم سري عنه، فقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١)" إلى آخر الحديث^(١٢).

وهذا الصوت كما يفهم من الحديث لا علاقة له بعملية التنفس التي مركزها الصدر والفم والأنف التي هي عَرْضُ بذاتها، وإنما له علاقة بالدماغ ولا شك، وربما كان الصوت منبعثاً من الرأس، أو لربما كان منبعثاً من الأذن أو منهما جميعاً.

٦- ثقل الوزن

وقد جاء في ذلك أحاديث طريفة منها ما ورد في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "أنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي". وروي عن أبي أروى الدؤسي: "رأيت الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، وإنه على راحلته فترغو وتقتل يديها حتى أظن أن ذراعها ينقص، فربما بركت وربما قامت مؤيدة يديها حتى يسرى عنه، من ثقل الوحي وإنه لينحدر منه مثل الجمان"^(١٣).

وعن أسماء بنت يزيد قالت: "إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة"^(١٤).

ولقد شاهد الصحابة رسول الله ﷺ كيف أن ناقتة التي تقله وهو يكابد الوحي لا تقوى على حمله فتحر على الأرض راغمة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "إن كان ليوحى إليه وهو على ناقتة فتضرب بجراها من ثقل ما يوحى إليه".

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (الزلزال: ٥)، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١). فالثقل هنا إذا ليس معنويا فحسب وإنما هو أيضا ماديا حسيا، بما أوحى به كافة النصوص الدالة على ذلك.

هكذا كانت أعراض الوحي كما قررتها الآثار المختلفة التي دلت بجلاء على شدة التجربة ومضائها على كيان محمد النبي عليه الصلاة والسلام بكليته.

إنها خبرة لم تكن سهلة عليه كما قد يتبادر إلى أذهان من لم يطلعوا على حالها كما وُصِفَتْ، وصورها كما جليت، أما حقيقتها في جليتها فلا يعرف كنهها إلا الله سبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. ■

(١٠) أسناد بجامعة محمد الأول، وجدة / المغرب.

الهوامش

- (١) البخاري، المناقب، ١٨؛ مسلم، الفضائل، ٧؛ السنن الكبرى، للبيهقي، ٥/٩، دلائل النبوة، للبيهقي، ١/٣٦٥ - ٣٦٦؛ المسند، للإمام أحمد، ٣/٣٦١.
- (٢) لسان العرب، لابن منظور، ٦/٤٧٨٧.
- (٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٦/٤٧٨٨.
- (٤) كبرى البقنبات الكونية، ل محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ١٥٤.
- (٥) البخاري، بدء الوحي، ٢؛ مسلم، الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي؛ الموطأ، للإمام مالك، كتاب القرآن، باب: ما جاء في القرآن، ١/٢٠٢. دلائل النبوة، للبيهقي، ٢/٥٢.
- (٦) البخاري في صحيحه، ٢/١٦٧. ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، ٨.
- (٧) كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، حديث ٨٨.
- (٨) لسان العرب، لابن منظور، ٣/١٥٥٥.
- (٩) الوفا بأحوال المصطفى، لعبد الرحمن بن الجوزي، ص: ١٦٦.
- (١٠) اسم موضع ما بين الطائف ومكة وهو إلى مكة أقرب. الروض المعطار، ص: ١٧٦-١٧٧.
- (١١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/١٦٧. ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، ٨.
- (١٢) المستدرک، للحاكم النيسابوري، ١/٥٣٥؛ المسند، للإمام أحمد، ١/٣٤١؛ الترمذي، ٤/١٥١؛ الدلائل، للبيهقي، ٧/٥٥.
- (١٣) الوفا بأحوال المصطفى، ص: ١٦٨.
- (١٤) الوفا بأحوال المصطفى، ص: ١٦٨.



الفروق الجنسية في العملية التربوية

شمس الدين بولات*

الحضانة أيضاً. كما سنقدم بعض الاقتراحات التي نعتقد أنها تفيد في رفع الكفاءة في هذه المؤسسات التعليمية.

الهوية الجنسية

اكتشف العالم النفسي "هربرت لاندسال" في مركز أبحاث "Bethesda" بأن النساء والرجال الذين أصيبوا عندهم الأقسام الدماغية نفسها بالخلل يتأثرون بشكل مختلف. فقد اختار لدراسته مجموعة مصابة بالصرع وقد نُزع القسم الأيمن من دماغهم وهو القسم الذي يحدد الإحساس بالحيز أو الفضاء الموجود حول الإنسان ويعين شكل الأشياء المحيطة به. فشاهد أن النساء

عندما نتحدث عن زيادة كفاءة الأفراد في تركيا وفي العالم، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن طبعاً هو المؤسسات التربوية. وعندما يكون الإنسان هو الموضوع نتذكر المثل القديم: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر". هذا المثل محق وهو يشير إلى أهمية التعليم والتربية وكيفية تشكل خلفية خزين المعلومات، وشكل التربية لدى الإنسان وأنها تستمر مثلما تشكلت، وأن إحداث أي تغيير فيما بعد يحتاج إلى انقلاب ذهني كبير. لذا فسنقوم هنا بنقد ذاتي لعملية التربية والتعليم الموجودة حالياً في المؤسسات التي تعد قاعدة التعليم، وهي المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وأحياناً مدارس

ع



الدماغية في الرجل تيسر له القيام بفعاليتين في الوقت نفسه. فمثلاً يستطيع الرجل القيام بنشاطين مثل القيام بقراءة خارطة والتحدث في اللحظة نفسها بشكل أيسر من المرأة. وهي تقول بأن السيطرة على فعاليتين أو نشاطين في الوقت نفسه يتم في الرجل في فصين مختلفين من فصي الدماغ. أما في المرأة ففي الفصين معاً، لذا يصعب عليها التحدث وقراءة خريطة في اللحظة نفسها. لذا فالأبحاث التي تناولت تشريح الدماغ دلت على أن الفروق بين دماغ الرجل ودماغ المرأة تجعل الرجل أفضل من النساء في النشاطات المتعلقة بالفضاء والمكان، لأن هذا النشاط في المرأة يتم عن طريق فصي الدماغ معاً.

إذن فهذه الأبحاث تؤكد على وجود فروق في الدماغ بين الرجل والمرأة، وأن لكل منهما بنية مختلفة عن الأخرى. وهذا يؤدي إلى فروق في التخصص بينهما، كما يدل أيضاً على أن دماغ الرجل قد تخصص أكثر من دماغ المرأة. هنا يخطر على البال هذا السؤال: هل يبدي كلا الجنسين ردود الفعل نفسها أمام الأشياء نفسها ما دام لكل منهما بنية دماغية مختلفة عن الآخر أم ردود فعل مختلفة؟ هذا هو ما يهمنا هنا. وقد دلت المشاهدات والأبحاث العلمية على أن الرجل يستخدم فص دماغه الأيسر في حل المعضلات التجريدية، بينما تستخدم المرأة فصي الدماغ في هذا الأمر. وتم قياس التيار الكهربائي الذي ينشره

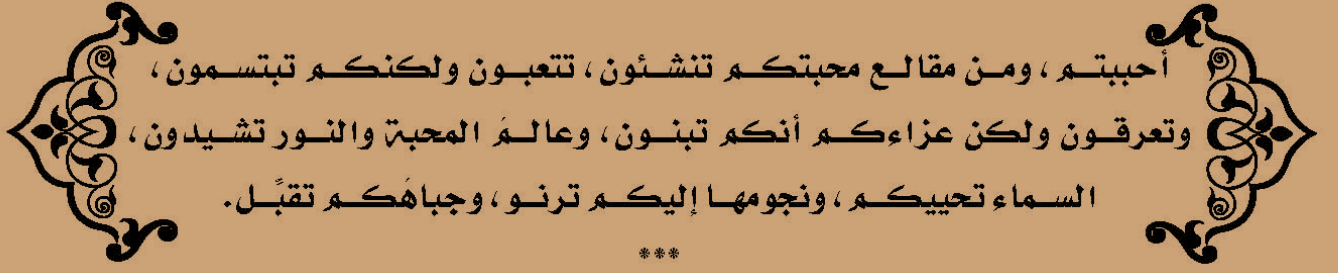
اللائي نزع القسم الأيمن من دماغهن لم يفقدن الشيء الكثير من قابليتهن. بينما شاهد أن الرجال الذين نزع هذا القسم من دماغهم قد فقدوا قابليتهم المتعلقة بالإحساس بالمكان والفضاء في تجارب (IQ)^(١) التي أجراها عليهم.

وقام "لاندسال" أيضاً بتجارب حول القسم الأيسر من الدماغ الذي يسيطر على قابلية اللغة. فشاهد أيضاً أن الرجال الذين تضرر هذا القسم من دماغهم فقدوا قابلية الكلام، أما النساء اللائي تضرر هذا القسم من دماغهن فلم يفقدن معظم هذه القابلية، مع أن قابلية الرجال في الكلام واللغة أكثر من قابلية النساء بثلاثة أضعاف.

الفروق الدماغية بين الأنثى والذكر

وأدى هذا بـ "لاندسال" إلى استنتاج ما يأتي: "إن النساء يملكن قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام في كلا القسمين من الدماغ". وهذه النتيجة أصبحت مقبولة بشكل عام. ومع أن هاتين القابليتين أي قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام موجودة بشكل أقوى في الرجال إلا أن قابلية الإحساس بالمكان والفضاء موجودة عندهم في القسم الأيمن من الدماغ، وقابلية الكلام واللغة موجودة في القسم الأيسر منه. وقد أيدت التجارب العديدة الأخرى التي جرت في هذا الخصوص هذا الاستنتاج. وتوصلت عالمة الكندية "ساندرا وتلسون" إلى أن الفروق





آليات التعليم والفروق الدماغية

فاستناداً إلى هذه المعطيات يجب التوجه إلى شكل جديد من التعليم قائم على أساس هذه الفروق بين الجنسين. فكما تُعطى مناهج مختلفة من التعليم لمجموعتين مختلفتين من ناحية الاختصاص (مثلاً دروس الفيزياء التي يدرسها المهندسون مختلفة عن دروس الفيزياء لمدرسي الفيزياء) كذلك يجب مراعاة هذه الفروق في القابليات للوصول إلى أفضل النتائج.

ثم لننظر إلى هذه المسألة من زاوية المعلمين والمدرسين والأساتذة. فهل على هؤلاء القيام بتعليم مفردات المناهج التعليمية بشكل مختلف للطالبات عن الطلاب؟ أم أن هناك طريقاً وسطاً بين هذه الثنائية؟

هذه الفروق بين المرأة والرجل ليست فروقاً سطحية كما يتوهم البعض. ولا شك أنهما متساويان في الحقوق والواجبات في المجتمع، ولكن إن قمنا بتدقيق القابليات نرى فروقاً كبيرة بين قابليتهما.

تقول "آنا موير" موضحة هذه المسألة: "تتزل هذه الفروق إلى أعماق كبيرة، وهي تبدو في الدماغ وفي بنيته وفي أولويات كلا الجنسين واستراتيجياتهما. وهي توجه آمالنا وأهدافنا وقابلياتنا ومهاراتنا. أما حصر هذه الفروق في ساحة التناسل فليس خاطئاً من الناحية العلمية فقط، بل هو إهمال لإنسانيتنا كذكر أو كأنثى".

وحول فكرة المساواة بين الجنسين تقول "أليس روسي": "التنوع ظاهرة بيولوجية، أما المساواة ففكرة ومفهوم أخلاقي وسياسي واجتماعي". وهي بذلك تبدي شكوكها حول مدى تلاؤم مفهوم المساواة مع العلم.

في مرحلة الحضانة والتعليم الابتدائي لا يكون الطلاب موفقين تماماً. ولكن ما إن يبلغ الطالب مرحلة المراهقة حتى يبدي تقدماً كبيراً حيث يستطيع اللحاق بالطالبات في موضوع القراءة والكتابة

الدماغ عند الأولاد وعند البنات لدى قيامهما بإسقاط شكل ثلاثي الأبعاد على الورق، فلو حظ أن الفص الأيمن عند الأولاد يعمل بنجاح أكبر. أما في البنات فهذا العمل يستوجب منهن عمل فصّي الدماغ. كما لوحظ في التجارب التي أجريت على الأولاد والبنات بعرض مشكلة أمام العين اليسرى (للوصول إلى الفص الأيمن مباشرة)^(١) أن الأولاد كانوا أكثر نجاحاً في حل المشكلة. لقد نوقشت نتائج هذه التجارب وهذه المعلومات من قبل مئات الباحثين وتم التوصل إلى النتائج الآتية:

- الفروق الموجودة في بنية الدماغ تؤدي إلى فروق في السلوك وفي القابليات بين الجنسين.
- البنات أسرع من الأولاد في تعلم القراءة.
- البنات أكثر نجاحاً في الامتحانات الشفوية من الأولاد.
- الرجل أكثر نجاحاً في القابليات المتعلقة بـ "الفضاء والمكان"
- تستعمل البنات الطرق الشفوية أكثر في حل المسائل الرياضية التجريدية.
- تبدأ الطفلة بالكلام أسرع من الطفل، ويكون خزينها من الكلمات أكثر.
- يملك الرجال قابلية في الأمور المشخصة أو الملموسة.
- البنات في مرحلة الدراسة الابتدائية أكثر نجاحاً من الأولاد في تعلم القراءة، لذا يُتهم الأولاد بأنهم أغبياء. ويترسخ هذا في لاشعورهم مما يكون له أسوأ الأثر في المراحل المقبلة من التعليم.
- تؤسس الطالبات علاقات أفضل مع المدرسين والمدرسات، ويشاركن في الدرس بصورة أكثر إيجابية من الطلاب.
- يبدي الطلاب نجاحاً أكثر من الطالبات في الرياضيات والمواضيع المشخصة (أي غير التجريدية) والنظرية الأخرى.

والحديث، ثم يتجاوزهن في ساحة الرياضيات؛ حيث نرى أن درجات (IQ) التي يحصل عليها الطالب البالغ سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة ترتفع بشكل ملحوظ، بينما تراوح درجات (IQ) التي تحصل عليها البنات في هذا السن في مكانها، بل ربما تهبط أيضاً. ومع أن البنات يتعلمن العد والحساب بصورة أسرع من الأولاد، (في الحقيقة هن يتعلمن كل شيء في البداية أسرع من الأولاد)، إلا أن الأولاد لا يلبثون أن يتفوقوا عليهن في المنطق الرياضي. وتتناقص قابلية البنات بمرور الوقت في الرياضيات كلما اتجهن من العمليات الحسابية الأربعة -كالطرح والجمع- إلى المستويات النظرية؛ أي إن الفروق في القابليات بين الجنسين موجودة في جميع المراحل العمرية. قامت جامعة جون هوبكنس في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٢ ببحث حول قابليات الأطفال الأذكاء في مدينة "بوسطن". وقد شمل هذا البحث آلافاً من الأطفال من كلا الجنسين بعمر ١١-١٢ سنة. وكان البحث يدور حول القابليات الرياضية لهؤلاء الأطفال المتفوقين من ناحية حاصل الذكاء (IQ) والذين كانوا يشكلون ٣٪ ضمن المتفوقين في موضوع الرياضيات والامتحانات الشفوية، فظهر أن الأولاد أكثر قابلية من البنات في موضوع الرياضيات. وكلما زادت صعوبة الامتحانات زادت نسبة نجاح الأولاد بالنسبة للبنات.

ففي التجارب التي أجريت وشارك فيها المئات من الطلبة من كلا الجنسين لوحظ أن نسبة نجاح الطلاب إلى الطالبات في مستوى ٤٢٠+ هو ١,٥ ÷ ١ وفي مستوى ٥٠٠+ (أي في تجارب وامتحانات أصعب).

كانت النسبة ٢ ÷ ١، وفي مستوى ٦٠٠+ أصبحت النسبة ٤ ÷ ١ وفي مستوى ٧٠٠+ (وهو أعلى مستوى) وصلت النسبة إلى ١٣ ÷ ١ كما لوحظ أن الفروق المتعلقة بالجنس تتوضح أكثر كلما تقدم العمر. فهرمون الرجولة يقوي قابلية الرجل المستندة إلى النظر والمتعلقة بالفضاء-المكان، بينما يُضعف هرمون الأنوثة هذه القابلية. لذا تتوضح فروق القابلية في علم الرياضيات عند الرجل بعد بلوغه ونضجه.

تناول الباحثون النظرية القائلة بأن الطلاب أكثر نجاحاً في المنطق الرياضي بينما الطالبات أكثر نجاحاً في عمليات الجمع والطرح... تناولوا هذه النظرية بالفحص والنقاش فأعطوا مفردات في علم الرياضيات إلى الطلاب تختلف عن المفردات

المعطاة للطالبات. ولكن الفروق في القابلية في علم الرياضيات لم تظهر إلا بعد إعطاء المفردات نفسها لكلا الجنسين.

ولتفسير هذا الأمر ذكروا ما يأتي: "إن معظم مدرسي الرياضيات هم من الرجال، لذا فإن لغة علم الرياضيات ولسانها لغة ذكورية ولا تناسب الطالبات".

الانقلابية في فلسفة التعليم

لذا نستطيع القول بوضوح بأن على نظام التعليم عندنا قبول وجود هذه الفروق بين الجنسين وأخذها بنظر الاعتبار وتحديد نظام التعليم حسبها. فإن كنا نرغب في تشويق الطالبات وحثهن للدخول إلى كلية الهندسة، علينا أن نجعل درس الرياضيات في المدارس أسهل بالنسبة للطالبات، وهذا يحتاج إلى تعليم الطالبات هذا الدرس بشكل مناسب لعقولهن.

هناك أدلة تبرهن على إمكانية التغلب على العقبات التي يصادفها الطلاب الصغار في مراحل التدريس الأولية، فهم يلاقون في البداية صعوبة في التعلم لأن المناهج الدراسية موضوعية حسب عقول وقابليات الطالبات، ولكن إصرار عوائل الطلاب على قيام أبائهم بالتعلم يدفع هؤلاء الطلاب إلى اجتياز هذه العقبة وتعلم القراءة والكتابة بسلاسة. ولكن الطالبات لا يستطعن اجتياز عقبة تعلم العلاقات المكانية-الفضائية بسهولة، أي بينما يستطيع الطلاب اجتياز الصعوبات التي يلاقونها في المراحل الأولى من التعلم لا تستطيع الطالبات تطوير قابليتهن فيما يتعلق بالمكان-الفضاء. والنتيجة التي نخلص إليها في الختام هي وجوب تقويم الطلاب والطالبات في النظام التعليمي حسب قابليتهم الفطرية لكي يمكن الاستفادة من هذه القابليات بشكل صحيح. وهذا يستوجب وضع مفردات مختلفة في مناهج التعليم للطالبات وللطلاب تكون متلائمة مع قابليتهم واستعداداتهم الفطرية. ونحن نأمل زيادة في البحوث العلمية في هذا المجال لكي يمكن الاستفادة بشكل أفضل من قابليات كلا الجنسين. ■

(١) كاتب وباحث في مجال التربية / تركيا. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

الهوامش

(١) IQ: intelligence quotient أي حاصل الذكاء أو درجة الذكاء ونحصل عليها بقسمة السن العقلي للإنسان على عمره وضرب حاصل القسمة في مائة. (المترجم).

(٢) لأن الفص الأيمن يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم. والفص الأيسر على الجزء الأيمن منه (المترجم).





شهادات استشرافية

أنصفت الحضارة الإسلامية

د. عماد عوجة*

في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوروبا في القرون الوسطى. ويقول "جورج سارتون" في كتابه "مقدمة في تاريخ العلم": "إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ"الفارابي" أعظم الفلاسفة، و"المسعودي" أعظم الجغرافيين، و"الطبري" أعظم المؤرخين". كذلك يُبدي "تومبسون" إعجابه بالعلوم الإسلامية فيقول: "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثير شعوب غربيّ أوروبا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك." ويقول في مكان آخر: "إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أجدد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية." هذا، وقد أبدى الباحث اليهودي "فرانز روزانتال" إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسموّ الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، فيقول: "إن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحساناً للتأمل والدراسة في التاريخ. ذلك أن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكوّن هذه الحضارة أمر يستحق التأمل

نستقرئ مما اعترف به المنصفون من المستشرقين أن الحضارة الإسلامية كانت هي صاحبة الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة؛ حيث أسهمت بكنوزها في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء في الإسراع بقدوم عصر النهضة وما صحبه من إحياء للعلوم المختلفة. فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غرباً لتخوم الصين شرقاً كانت أوروبا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في ظلام حضاري وجهل، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على الغرب وتطرق أبوابه. فنهل منها معارفه وبكر بها لأصالتها المعرفية والعلمية.

فلم تخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما للمسلمين من فضل في الحضارة الإنسانية على الحضارة الأوروبية؛ فألفوا كتباً ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره. فقد نذكر نفراً منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها.

فمثلاً يقول "توماس أرنولد": "كانت العلوم الإسلامية وهي

العميق، وهي ظاهرة عجيبة جداً في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دوماً وأبداً أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين. ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة، لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جداً ووقت قصير جداً، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ. وقد أشاد أحد الباحثين وهو "روبرت بريفولت" بالحضارة الإسلامية فقال: "إن القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نتاج الصلة الوثيقة بين الفلكيين والكيميائيين والمدارس الطبية. وكانت هذه الصلة أثراً من آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية. إن معظم النشاط الأوروبي في مجال العلوم الطبيعية إلى القرن الخامس عشر الميلادي كان مستفاداً من علوم العرب ومعارفهم، وإن قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في البقطة الأوروبية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لا بد منه للقضاء عليهما".

ويقول المستشرق "أدم متز" في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري": "لا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم، فقد كان في كل بيت مكتبة". ويقول "رينيه جيون": "لم يدرك كثير من الغربيين قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، ولا فقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية".

ويذكر "هينولد" أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، وأن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجملها القدماء. فقد قام منهاج المسلمين على التجربة والترصد وكانوا أول من أدرك أهمية المنهاج في العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً.

ويقول "دولنير" في كتاب "تاريخ الفلك": "لقد منح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعاً، ولم يتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة". ويستطرد قائلاً: "ومن مباحثنا في أعمال العرب العلمية أنهم أجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيراً، وكان تراث اليونان قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه زمناً طويلاً، ولما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه،

فتلقاه ورثتهم (يقصد الأوروبيين حديثاً) وحوّلوه مخلوقاً آخر". ويقول "مسيو لييري": "لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون". ولقد أشار أيضاً إلى هذا المعنى المؤرخ الفرنسي الشهير "سديو" في تاريخه الكبير، الذي ألفه في عشرين سنة، بحثاً عن تاريخ المسلمين، وعظيم حضارتهم، ونتائجهم العلمي الهائل، فقال: "لقد استطاع المسلمون أن ينشروا العلوم والمعارف والرقى والتمدن في المشرق والمغرب، حين كان الأوروبيون إذ ذاك في ظلمات جهل القرون الوسطى.... إلى أن يقول: "ولقد كان العرب والمسلمون - بما قاموا به من ابتكارات علمية - ممن أرسوا أركان الحضارة والمعارف، ناهيك عما لهم من إنتاج، وجهود علمية، في ميادين علوم الطب، والفلك، والتاريخ الطبيعي والكيمياء والصيدلة وعلوم النبات والاقتصاد الزراعي وغير ذلك من أنواع العلوم التي ورثناها نحن الأوروبيين عنهم، وبحق كانوا هم معلمينا والأساتذة لنا". ويذكر العلامة "سديو" أيضاً: "أن المسلمين سبقوا كيبلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضي وفي دوران الأرض. وفي كتبهم من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حدثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة".

هذا، ولم ينسَ فضلاء علماء الغرب أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ونستقي من كتاب "حضارة العرب" لـ "غوستاف لوبون" حيث يقول: "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وإهم هم الذين مدّنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قوم في الإبداع الفني". ويستطرد قائلاً: "ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهما مدينان لهم في تمدنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هدّوا بتأثيرهم الخلقى البرابرة، وفتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا مُمدّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون. فقد ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً



لَمَنْ سَتَكُون الدُّنْيَا؟

راكضون لاهثون...

على الدنيا يتسابقون...

الأقوياء في خضمها يتصارعون...

ومفتول عضلاتهم يستعرضون...

والخشود في صمتٍ ينظرون...

قانعون خانعون...

وبسمات الأيام يستجدون...

أما المظلومون...

فهم يتألون...

وحظهم العاثر يندبون...

للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون. فعلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بحمّل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة".

ويذكر المستعرب الصيني "لي قوان فبين" وكيل وزارة الخارجية الصينية، وعضو مجمع الخالدين (اللغة العربية) بالقاهرة، وصاحب الدراسات العاشقة لثراث وحضارة العرب والمسلمين "أن الحضارة الإسلامية من أقوى حضارات الأرض، وأنها قادرة على اجتياز أي عقبات تواجهها لأنها حضارة إنسانية الطابع، عالمية الأداء، رفيعة القدر علمياً وفكرياً وثقافياً. وبعدها تعمقت في الأدب العربي القديم والحديث ازداد اقتناعي بأن الشرق يمتلك سحر الحضارة والأدب والثقافة، وأنه صاحب الكلمة المفكرة والعقلية المنظمة؛ إذن فالحضارة الإسلامية تحمل عوامل البقاء، لأنها عصية على الهدم، لتوافر أركان التجدد والحيوية في نبضها المتدفق، وهي من أقوى حضارات الأرض قاطبة؛ لأنها تستوعب كل ما هو مفيد من الآخر وتصحّره في نفسها ليصبح من أبنائها، بخلاف الحضارة الغربية المعاصرة، كما أن الحضارة العربية الإسلامية تتسم بأنها عالمية الأداء والرسالة، إنسانية الطابع، جوهرها نقي ومتسامح".

ويقول الدكتور "خوسيه لويس بارسلو" أحد الباحثين الأسبان: "يجب أن نقرر الأهمية الحقيقية لتأثير العلوم الإسلامية، فهي من الناحية الموضوعية قد ساعدت على وجود المعايير الطبية الحالية". ويذكر من هذا المنطلق: "فقد أرسى الإسلام مدنية متقدمة تعد في الوقت الحاضر من أزوع المدنات في كل العصور، كذلك فإنه أيضا قد جمع حضارة متينة متقدمة، وذلك إذا ما طرحنا جانباً الاضمحلال الواضح للقوى السياسية، والتفكك الظاهر للدول الإسلامية. فإن الشخصية الجماعية للإسلام قد صمّدت أمام كافة أنواع التغيرات، ذلك لأن معيار الشخصية الجماعية هو المدنية عامة والتقاليد التي لم تنطفئ أو تخمد. هذه هي روح الإسلام كما يجب أن يفهمها أولئك الذين يحاولون عن عمدٍ وسوء نية تشويه صورته".

وقد حان الوقت لنستذكر هذه الحقائق عن حضارتنا آملين الإفادة منها لنهوضنا من جديد. ■

(*) باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.



فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي

أ.د. محمد عمارة *

ي

وهذا التنوع والاختلاف والتمايز يتجاوز كونه "حقاً" من حقوق الإنسان، إلى حيث هو "سنة" من سنن الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١). ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿(هود: ١١٨-١١٩). وكما يقول المفسرون: "فللاختلاف خلقهم".

فالواحدية والأحدية فقط للحق سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون في كل عوالم المخلوقات.

جـ- وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة والعلاقات بين الأحياء. وفي هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها:

أ- أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.^(١)
ب- وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات. وأن هذه التعددية هي في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله سبحانه وتعالى. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان. وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد. وإلى مناهج، أي ثقافات وحضارات في إطار المشترك الإنساني الواحد، الذي لا تختلف فيه الثقافات. كما تنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متميزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة.



مع الآخر الديني

وفي دولة النبوة بالمدينة المنورة سنّ رسول الله ﷺ ثلاث سنن جسّدت فلسفة الإسلام في العلاقة بالآخر الديني؛ الكتابي منه والوضعي: اليهود والنصارى، والجوس ومن مائلهم.. ولقد صيغت هذه السنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، في وثائق دستورية، طبّقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

١- مع الآخر اليهودي

وأولى هذه الوثائق الدستورية هي "الصحيفة، الكتاب"، دستور دولة المدينة المنورة، الذي وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة، وفور إقامة "الدولة" ليحدد حدود الدولة، ومكونات رعيّتها (الأمة)، والحقوق والواجبات لوحدة الرعية، بمن فيهم الآخر الديني (اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون)، وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيّتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمسين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود، أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأَنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -"يهلك"- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصِرٍ عليهم، ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.." (٣)

فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول "عقد اجتماعي وسياسي وديني" -حقيقي وليس مفترضاً ومتوهماً- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءاً من الرعية والأمة والدولة -أي جزءاً من الذات- له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق.

٢- مع الآخر النصراني

أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهي خاصة بالعلاقة مع الآخر

الْخَيْرَاتِ ﴿الْمائدة: ٤٨﴾. ومنها: فتح أبواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي يستحيل تحقيقه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ (البقرة: ١٤٨).

د- وأن علاقة الفرقاء المتمايزين والمختلفين والمتعددين يجب أن تظل في إطار الجوامع الموحّدة، وعند مستوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣). "فالوسط" -بنص الحديث النبوي- هو "العدل" الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين،" (رواه الإمام أحمد).

هـ- فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق "التدافع" الذي هو حراك يُعَدِّلُ المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصل: ٣٤). وهذا "التدافع" الذي هو وسط بين تفریط "السكون والموات" وبين إفراط "الصراع"، هو المزكي للتعددية، وللتنافس والتسابق على طريق الخيرات، بينما السكون يفضي إلى الموات للمستضعفين. كما أن الصراع يفضي إلى نفس النتيجة؛ لأنّ القوي يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهي التعدد والتمايز والاختلاف. فالتدافع هو الذي يُعَدِّلُ المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتسابق على طريق الخيرات. فهو سبيل للإصلاح في ظل التنوع والتعدد، وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١). (٢)

هذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في الرؤية الإسلامية للكون والحياة والعلاقات بين عوالم المخلوقات والأفكار، ودور هذا التنوع في التقدم والإصلاح.

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة عن غيرها من نزعات وفلسفات الدمج القسري لكل في واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع التي تفضي هي الأخرى إلى انفراد طرف واحد -هو الأقوى- بالساحة والامتيازات. فطرفاً الغلو يفضي كل منهما إلى ذات النهاية.. وبينهما تمييز الوسطية الإسلامية في هذا الميدان..

النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران -عهداً لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية. وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض حوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم ويبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أن أحسى جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم ويبيعهم ويوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السباح، وأن أحرس دينهم وملتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم" (٤).

فبلغت هذه الوثيقة في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية، مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيداً لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين كل دين.

٣- مع الآخر أهل الديانات الوضعية

أما السنة النبوية الثالثة التي قننت للعلاقة بالآخر الديني، فلقد مدّت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون بالجووسية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ؓ. فلقد عرض عمر ؓ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى (مجلس السبعين)، وسأل: "كيف أصنع بالجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ؓ فقال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنُوا فِيهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ" (٥).

التوترات الدينية استثناء من السنة النبوية

منذ القرن الهجري الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطاناً ودياراً وأقاليم، كما ضمت شعوباً وقبائل وديانات وفلسفات ومذاهب جسدت كل ألوان وأطراف التنوع والاختلاف الذي عرفه الإنسان في ذلك التاريخ.

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التي تفرعت

عنها وورثت سلطاتها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذي جمع بين المتناقضات.

ولا يتصور عاقل أن تاريخاً بهذا الطول (قراءة خمسة عشر قرناً) لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفي ظل تحديات خارجية شرسة، يمكن أن يخلو من التوترات الدينية بين الفرقاء الذين عاشوا على أرض الإسلام. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية التي تمثل خروجاً عن السنة النبوية التي تقررت منذ دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة يجب أن يكون في حجمها الحقيقي، وفي إطار مقارنتها بما كانت عليه الحضارات الأخرى، كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك في الحروب الدينية الأوروبية التي دامت أكثر من قرنين، وأبيد ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا، والحروب بين البيض والسود في أمريكا.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية في إطار الأسباب الحقيقية التي ولّدت وقائعها وأحداثها.

ولعل شهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

فالعالِم الإنجليزِي الحجة "سير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإسلام وحضارته، والتي وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليتمكن القول: إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام" (٦).

والعالِم الألماني الحجة "آدم مترز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام" (٧).

أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني "جورج قرم"، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية -العابرة والمحدودة- التي شهدتها التاريخ الإسلامي إلى عوامل ثلاثة، هي: ١- المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت والذين اضطهدوا الأقليات كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها.

٢- صلف الوزراء والحجبة والقادة غير المسلمين، واستغلالهم على جمهور المسلمين، وشرائهم المستغفر، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة، وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات. ٣- غواية الاستعمار الأجنبي -الصليبي



موقف التفاعل المتوازن

أما الموقف الثالث من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذي يختار طريق "التفاعل" مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق" أو تفريط يؤدي إلى "التبعية" والتقليد والذوبان.

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذي يميز بين خصوصيتنا الثقافية المتمثلة في منظومة القيم الإسلامية، التي هي معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء أكان هذا المشترك علوماً طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها عمران الواقع المادي في المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنساني العام خيرات وتحارب إنسانية في ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة في الفضاءات الثقافية الأخرى.

فهذا الموقف الثالث -موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات والحضارات- هو النافع... وهو الوسط العدل بين غلو الإفراط والتفريط في الانغلاق والعزلة وفي التبعية والتقليد.

بل إن هذا الموقف الثالث (الوسطي والمتوازن والعاقل) يكاد يكون هو القانون العادل الذي حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ.

فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية في القرن الهجري الأول، ترجموا علوم الصنعة (تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة) ولم يترجموا ديانات مصر (الوثنية أو النصرانية) ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية. وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني، منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني. وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية؛ فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية. وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع الموارث الهندية؛ إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانيتها. ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي؛ فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق. وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية -إبان نهضتها- على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج

والإنجليزي والفرنسي -لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالي الغزاة، وتحنون أمتها ووطنها، ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان، الأمر الذي ولد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات.^(٨)

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين.^(٩)

العلاقة مع الآخر الثقافي

في الموقف من الثقافات التي تنتشر على النطاق العالمي، وفي إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف هو موقف المثقف "خالي الشغل"، ذلك الذي يمثل عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية والذاتية الحضارية، وتنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التي تعيش بها وعليها طبقة "الكومبرادور" الطفيلية، التي لا علاقة لها بالإنتاج الوطني والقومي، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكري والثقافي والحضاري.

وثاني هذه المواقف هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافتها، وفي التطوير لهذه الثقافات، والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحملون بـ "المستحيل - الضار".. فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديماً، فما بالناب في عصر ثورة وسائل الاتصال!^{١٠}

وهذا المستحيل ضار -على فرض إمكان تحقيقه- لأن الانغلاق الثقافي يؤدي بأصحابه إلى مثل ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدي بأصحابها إلى التقليد الذي يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود -هو الآخر- إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية.. فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية في الثقافة والحضارة.

التجريسي، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين.

إن الخصوصية الثقافية هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي يبدع ويمجد؛ بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والنوبان والاضمحلال.

لقد تميزت فلسفة الإسلام في النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفي العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع والملل والنحل بالموقف الوسطي الذي قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد ﷺ. إن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات في إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهي الواحد. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدة الدينية مع التمايز في الشرائع الدينية أيضاً. وبهذه الفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني حقق الإسلام "ثورة إصلاحية.. وإصلاحاً ثورياً" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءاً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

ووحده الإسلام هو الذي بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءاً من الذات الدينية؛ فقرر للآخرين ذات الحقوق وذات الواجبات في الدولة والأمة: "لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم...".

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءاً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة - وليس فقط الأمة - على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سَكَنًا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هَن لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧). (١٠)

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في سلة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السوء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علات، دينهم واحد، وأمهم شتى" (منق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل

عمران: ٦٤).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣-١١٥).

وليس من العدل أبداً التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢).

لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السوء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررهما للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "إن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم.. ■

① كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

المواشم

① انظر: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١-٤).

② وانظر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾ (الحج: ٤٠).

③ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لـ محمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٦ م، ص ١٥-٢١.

④ مجموعة الوثائق السياسية، لـ محمد حميد الله، ص ١٢٣-١٢٨.

⑤ فنوح البلدان، للبلاذري، القاهرة ١٩٥٦ م، ص ٣٢٧.

⑥ الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، القاهرة ١٩٧٠، ص ٧٢٩-٧٣٠.

⑦ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم منز، بيروت ١٩٦٧ م، ١/١٠٥.

⑧ نعدد الأديان وأنظمة الحكم، جورج قرقم، بيروت ١٩٧٩ م، ص ٢١١-٢٢٤.

⑨ انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ)؛ عجائب الآثار، للجبيني (١١٦٧-١٢٣٧هـ).

⑩ وانظر: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١).





هـ

هتفت وهي
تنزل السلم
مسرعة:

- حسناً... حسناً... أتيتك!

- يجب أن أذهب...
يجب أن أذهب يا أمي!... عليّ
أن أكسّر عمري من أجل هدف
إنساني!... عليك أنت أن تهني ابنك لهذا الهدف،

مثلما فعل أسلافنا، فوهبوا أعمارهم وثرواتهم وأبناءهم.

فحقّ فيها ما قيل:

"فارقته لم تكن عالمة أن يوم الملتقى يوم اللقاء"

...

هكذا هي امرأة الأناضول.. رمز التضحية والبراءة والصفاء...
فكلّما استمعت إليه لاحت لها بوارق الحق في كلامه، قالت له:

- اذهب يا بني!..

ودّعته كالأمهات اللواتي أرسلن أبناءهن للدفاع عن الوطن
من محطة "بيلجك"، قائلة:

- اذهب يا بني!.. اذهب.

فذهب إلى سيبيريا القارسة البرد التي ما لبثت حتى تحولت في
عزيمته إلى أكثر الأنسام عدوية ودفعاً.

ولكن في المساء الأخير قبيل ذهاب ابنها، وكان رأس ابنها في

الظاهر أن طارق الباب كان على عجل!... لأنه ما إن لمس
مطرقة الباب لم يدع الطرّيق... كان يطرق باستمرار... وعندما
فتحت الحاجة حسية الباب بقلق ممزوج بالغضب، ذهلت ولم
تصدق عينيها:

- جميل!!!

لفظت اسم ابنها في صرخة نداء من بين شفتيها...

...

كانت العمة حسية قد ودّعت فلذة كبدها جميل إلى
"سيبيريا" مدرّساً قبل ستة أشهر، ولم يُجلّ في خيالها أنه سيعود
هكذا مبكراً.

وقبل ذهابه إلى سيبيريا كانت قد انتظرت أعواماً وأعواماً بنافذ
الصبر لينتهي دراسته الجامعية. فبينما هي تأمل أن تنقضي أيام
الفراق وتحقق آمالها الحلوة فيه، إذا به يفاجئها بقوله:

له قائلة:

حجرها، تداعب شعر رأسه كما كانت تفعل عندما كان طفلاً
فتحت صندوق عرسها وأخرجت منه ساعة بسلسلة وقدمتها

- خذ يا بني!.. هذه الساعة ذكرى من والدك، ورثها هو من
والده... ستذكر أمك وستدعو لأبيك كلما نظرت إليها..

قبل يدي أمه ومسح وجهه بيديها:

- وهل يمكن أن أنساك يا أمي؟!..

ثم نهض وأخرج ساعة دقاقة من حقيبتها:

- ما دام الأمر هكذا... إذن أتترك لك ساعتني هذه... ليست
ساعة اعتيادية يا أمي!.. إنها تدق مع دقائق قلبي...

كان جميل قد أضاف ثلاث حلقات إلى الساعة. كان هناك
سهم متجه من كل حلقة نحو مركز الساعة. في الحلقة الأولى
كانت توجد كلمة "الفجر" وفي الثانية كلمة "الضحى" وفي
الثالثة حرف "ت" (١) فقط. كانت هذه الحلقات موجودة على
الساعة وحسب الأوقات.

فتح عينيه على جو جديد من الحياة، لذا فما إن يصحو في
الفجر ويصلي حتى يغير ساعته على حلقة الضحى ثم على حرف
"ت". شرح هذا لأمه ثم قال لها:

- اعملي أنت الشيء نفسه يا أماه!!.. وادعي لي!

ثم حدثها عن أشياء كثيرة...

أيقظته أمه في ساعة صلاة الفجر وودعته.

...

سافر إلى سيبيريا كأنه فارس على صهوة جواد من نور ينطلق
في الظلام مودعاً أمه في الفجر... ينطلق إلى أماكن لم تر بعد
نور الشمس ولم يلمسها بعد شعاعها الذي يحيي الموات. وبينما
كانت تتوقع أن تتأخر هذه العودة إذا بما تراه أمامها. وكما تفعل
كل أم فقد فتحت ذراعيها إلى أقصى ما تستطيع واحتضنته...
فتحت عينيها على غرفة مظلمة، فصحت من رؤياها...
تقلبت في فراشها ببطء وهي تنهد قائلة: "آه يا بني!" كانت
الساعة تشير إلى وقت حلقة "ت"، تمت بوهن وهي تضغط
على زر الساعة:

- هذه الليلة لم تبقى لي حاجة إليك... لقد أيقظني
صاحبك.

قامت وتوضأت... وعندما فرشت سجادها ألقت نظرة على
الساعة... كان ميلاً الدقائق والساعات متوقفين، وكانت الساعة

تشير إلى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق. تناولت الساعة وتمعت
فيها... عجباً! كانت الساعة متوقفة... وبدون أن تشعر، وبدون
أن تدري السبب هتفت:

- آه يا بني!.. كيف عرفت أن الساعة متوقفة فقامت
بإيقاظي؟!..

وقفت خاشعة للصلاة... كانت في حالة روحية غريبة...
تضرعت وقرأت الأدعية حتى الصباح.

.....

بعد أيام دُقَ بها دقات وجلة ومترددة... نزلت ودرج البيت
القديم يصير تحت قدميها، وفتحت الباب... كان هناك شابان
وضيئا الوجه... قال الشاب الطويل بصوت خافت:

- هل أنت العمّة حسية؟!..

- أجل!

- هل نستطيع الدخول يا عمّة حسية؟!.. نحن أصدقاء
"جميل".

لمعت عينا العمّة حسية. قالت بفرحة غامرة:

- طبعاً!.. طبعاً!.. تفضلوا يا أولادي!..

ثم أردفت بانفعال:

- "جميل"... هل أتى "جميل" أيضاً؟

- كلا!.. لم يأت جميل يا عمّة حسية.

- ولكن هذه الحقيبة في يدك هي حقيبتها!

نكس كلاهما نظرهما إلى الأرض... ربّاه!.. كم كان هذا
الأمر صعباً.. تمالك أحدهما نفسه بصعوبة وقال:

- هذه الحقيبة حقيبتها يا عمّة حسية! ولكنه...

لم يستطع أن يكمل الجملة... تحولت الكلمات عنده إلى
دموع... فهمت العمّة حسية... وهل هناك أحد يفهم أفضل
من الأم لغة الدموع؟ تماوت في مكانها... من يدري كم استمر
ذرفها للدموع... ثم قالت أخيراً:

- "إنا لله وإنا إليه راجعون"...

ارتسم التوكل وتسليم أمرها لله خطوطاً على وجهها.
سألت:

- كيف حدث هذا؟

- مرض قليلاً.. ذهبنا به إلى الطبيب... كان يسير نحو
الشفاء... في تلك الأمسية أيضاً كان وضعه جيداً حتى إن طلابه
جاؤوا لزيارته، وبعد أن غادروا قال:



- أعتقد أنني تعبت...

وذهب إلى غرفته. نام ولم يستيقظ.

- وأين نعيشه؟..

قالت هذا، وأخذتها نوبة أخرى من البكاء.

مدّ الشاب الطويل بعض الأوراق إليها وقال:

- وجدنا في الصباح هذه الأوراق في جانبه... وكأنه أحسّ

بدنو أجله... كان يصّر في هذه الأوراق على دفنه في اليوم الثاني

في البلدة التي تُوفي فيها... لم نجد بُدّاً من تنفيذ وصيته فقمنا

بدفنه في حديقة مدرستنا... أي في مكان يستطيع فيه سماع

أصوات طلابه الذين أحبههم كثيراً.

ثم أخرج من جيبه ساعة بسلسلة وظرف رسالة، وقدمهما

للعمة حسية قائلاً:

- لقد ترك هذه الأغراض لك يا عمة... هذه ساعة ابنك،

وهذه هي الرسالة الأخيرة التي كتبها لك.

لَفَت العمة حسية السلسلة على ذراعها وأخذت الساعة في

راحة يدها. ثم -وبيد مرتعشة- أخذت الرسالة... قربتها من

شفتيها وقبلتها ثم بكت طويلاً. وعلى الرغم من حالها المؤلم فقد

حافظت على رقتها وأدبها الجم وقالت لهما:

- أرجو المعذرة منكما...

ثم قامت وذهبت إلى الأريكة الطويلة التي جلست عليها

مع ابنها لآخر مرة... كان ابنها قد وضع رأسه في حجرها...

تذكرت كلماته الأخيرة لها:

- لم يبق لي يا أمي سوى الدعاء لك... أما أنا، فمهمّتي

تقديم خدماتي حتى الرّمق الأخير... وربما سنجلس معاً يا أمي

في الجنة على أريكة من الزمرد، وسأضع هناك رأسي في حجرك

وستلمسين شعري وتنشدن لي أغنية من أغاني الأطفال... وما

أجمل أن يضع ابن رأسه في حجر أمه ليسمع أغنيتها الحنونة

الصادرة من قلبها في مفرّ فوق الزمان والمكان... آه! ما أجمل

هذا!!..

وبصعوبة فتحت الرسالة:

- أمّاه!! لا أدري هل أستطيع إتمام رسالتي هذه قبل وفاتي

أم لا؟.. أريد أن تحفظي برسالتي هذه سرّاً بينك وبين...

ما أبرد هذا البلد يا أمّاه... أشعر بالقشعريرة وهي تسري في

جسدي... أشعر بالبرد يا أمي... أكتب هذه الرسالة على فراش

المرض... جاء تلاميذي في المساء لزيارتي... طلبت منهم الدعاء

لي بالشفاء... آه يا أمي، لو شاهدت كيف دعوا... لو شاهدت

أسلوب وكيفية دعائهم... لو كانت لي ألف روح وتجمّدت

كل منها واحدة إثر أخرى لما ترددت في المجيء إلى هذا البلد

البارد. لو كنت هنا إلى جانبي لحيأت لي شراب النعناع والليمون

لأعرق وأشفي. لم أعد الآن أحزن لعدم كونك معي وبجاني،

لأنني غفوت لحظة فإذا ببابي يُفتح ويدخل شخص نوراني... ما

إن رأيته حتى حاولت أن أهبّ من مكاني.. ولكني لم أستطع..

فقد كنت خائر القوى.. قال لي:

- هل أصبت بالبرد يا جميل؟ هل بردت كثيراً يا جميل؟..

تصوري! قال لي "يا جميل؟!" ثم نزع بردته وألبسني إياها...

والأهم أنه قال:

- تعال!.. لن تشعر بالبرد من الآن فصاعداً... وإلى الأبد..

وفي أثناء محاولتي القيام من الفراش وقعت على الأرض...

سألني دعوته يا أمّاه!.. وقد أمرّ بك قبل الذهاب... لا تحزني يا

أمّاه من أجلي... ولن أحزن من أجلك... عندما ودّعني قلت

لي:

- أستودعك الله...

وأنا الآن أستودعك الله وأدعك في كنفه وفي كنف رسوله

وحبيبه... أتلي سورة الفاتحة من أجلي... ودُمت في رعاية الله

وحفظه يا أمّاه!

ابنك جميل...

...

وقعت الرسالة من العمة حسية، وتحركت شفتها دون إرادة

منها بسورة الفاتحة. وكأنها تتلو له قصيدة حب. وفيما هي تمسح

وجهها بيديها وقع نظرها على الساعة التي أعطتها لجميل...

ساعة العائلة وميراثها... كانت متوقّفة وتشير إلى الساعة الثالثة

إلا عشر دقائق. ■

كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي. وهي قصة

حقيقية وقعت في بلاد الجليل، سببريا.

(١) وهو الحرف الأول من كلمة "النهجد". (المترجم)

الاقتصار الأخير

✦ عمر فاروق كولدن* ✦

١

- ما الأمر يا عزيزي، لست طبيعياً اليوم؟!..
- اطمئني أنا بخير الحمد لله..
- هل ذهبت إلى المستشفى؟
- نعم ذهبت!..
- وماذا قال لك الدكتور؟!..
- لم يقل شيئاً مهماً.

اجتاحتها موجة من الضيق.. وحط على قلبها حزن عميق أسود.. دارت بنظراتها الحزينة في جنبات الغرفة وقد تشبعت عينها بالدموع.. عرفت أن حالة زوجها ليست جيدة هذه المرة.. اقتربت منه ثم جلست إلى جواره بتأدب وأسندت رأسها على كتفه:

- أرجوك يا عزيزي لا تحف عني شيئاً..
- كان لا يريد أن يحزنها أكثر، ولا يريد أن يبين عن همومه واضطرابه.. ولكن..
- قال وعيناه على المكتبة:
- قال لي الدكتور بأن مرضي انتقل إلى الرئة.
- إلى الرئة؟!..
- نعم، ولكن لا تقلقي!.. لكل داء دواء.. والشافي هو الله!..

كان يدرك أن الأمر جد خطر، وأن ليس لهذا المرض دواء.. لقد نصحه الدكتور بأن يستريح جيداً ولا يتعب نفسه لمدة ثلاثة أشهر ثم يعود إليه.. آمن بأن المرض الذي انتابه هو تقدير إلهي، ولا اعتراض لحكم الله.. كان يعرف معنى التوكل معرفة حقيقية.. قام وخطا نحو المكتبة وتناول منها المصحف الشريف.. وراح يتلو سورة الكهف.. قالت وكلها آذان صاغية لما يتلو:

- ولم سورة الكهف!.. ولم لا نتابع تلاوتنا من المكان الذي وقفنا عنده؟!..

- قرأت في حديث شريف للنبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قرئت هذه السورة ليلة الجمعة كانت دواء لكل داء.. وإني أؤمن من صميم قلبي أنه الصادق المصدق وأن أقواله دواء لكل مرض

أقبل هذا المساء على المدينة المغمورة بالثلوج موحشاً كثيراً.. وألقى عليها مع قساوة البرد وشاحاً أسود حزيناً.. الغيوم السوداء تخنق الضوء والنور.. صمت كالح.. هدوء مخيم على الشوارع.. وإذا بخافلة البلدية تقف بفرملة مزعجة تخدش الآذان.. نزل وهو شارد الذهن.. رفع رأسه ودار بنظراته الحزينة هنا وهناك.. وقف لحظات ثم أخذ يسير في طريقه رويداً رويداً..

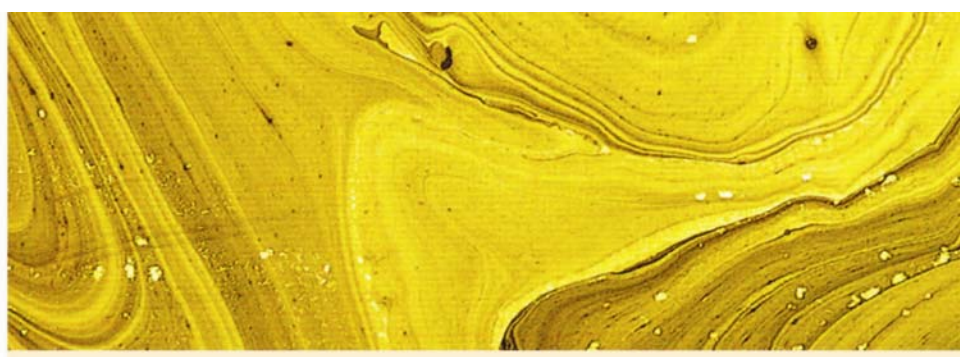
الأمر هذه المرة جد مختلف.. شحب وجهه وتندت عيناه بالدموع.. تنهد ثم تَمَّ في أسي:

- إنا لله وإنا إليه راجعون!..

دق الجرس.. فتحت زوجته الباب والقلق العميق باد على وجهها.. ركزت نظراتها في وجهه الشاحب آملة أن يخبرها عما جرى معه اليوم.. نظر إليها وابتسم ابتسامة باهتة ودخل بهدوء.. توقعت أن الأمر ليس على ما يرام!.. وما إن رأى أطفاله حتى احتضنهم وضمهم إلى صدره بشوق وقيلهم بحرارة وكأنه يودع.. توجهت زوجته "وفاء" نحو المطبخ لتحضير العشاء وقد احتل الضيق صدرها.

وخلال تناوُلهم الطعام كان "صابر" معتمِماً بالصمت وغارقاً في التفكير.. لم يجازح أولاده ويداعبهم، لم يسألهم عن يومهم في المدرسة هذه المرة.. وعندما كانت وفاء تجمع أطباق الطعام من فوق المائدة ملاً جميع أطراف الغرف صوت ندي.. أذان العشاء يُرفع.. هُض صابر من مكانه وتوجه إلى المغسلة ليتوضأ.. انزوى في غرفة كان قد جعلها مسجداً في بيته.. وبعد لحظات وقف وأهله إلى الصلاة في جماعة.. وقف باستسلام خاشعاً متضرعاً.. ارتجف صوته وتساقطت دموعه على خديه واحدة إثر الأخرى.. لم يعد يشعر بنفسه أو بما حوله.. كان يوقن أن الله معه وقريب منه جداً.. وبعد الأوراد والتسبيحات قام أولاده فقبلوا يده ثم ذهبوا إلى غرفهم، عندها سددت وفاء نظراتها إليه وقالت بصوت خافت:





وشفاء لكل مريض بإذن الله تعالى..

صمت لحظات، ثم أخذ يحدثها عن اليقين العميق مستشهدا على ذلك بهذه القصة...

- لقد أصاب قحط قاتل قرية من القرى. فلم يبق عند أهلها قطرة ماء يشربونها أو يسقون بها دوابهم.. لم يجدوا سبيلا سوى الدعاء إلى المولى عز وجل.. احتشدوا رجالا ونساءً، صغاراً وكباراً، جمعوا دوابهم وخرجوا إلى البراري والقفار راجين من الله أن يغيثهم.. إمام القرية يدعو والأهالي يؤمنون، يستغفر فيستغفرون، يوحد فيوحدون.. وما هي إلا دقائق حتى تراكت السحب وأمطرت عليهم السماء مدراراً.. فتبلل الجميع إلا فتاة صغيرة.. آمنت إيماناً يقينا بتزول المطر عند خروجها من القرية، فأخذت معها مظلة كي تحميها من البلل وقطرات المطر..

ثم قال:

- ونحن الآن يا عزيزتي في أمس الحاجة إلى الدعاء..

منذ ذلك اليوم راح صابر ووفاء يتلوان سورة الكهف كل ليلة جمعة.. ويناديان رهما بقلب خاشع، وإيمان تام في غسق الليالي.. طرقا باب الشافي سبحانه بإلحاح وتضرعا إليه باستمرار..

وبعد ثلاثة أشهر وعندما ذهب ووفاء إلى الطبيب لآخر مرة، كان الحزن قد أرخى سدوله عليهما بأنواع الهموم والاضطرابات.. ألم يكن مرض بلا دواء؟! إذن لماذا الأمل والرجاء؟!.. قدمت الممرضة نتائج التحليل إلى الطبيب.. تناولها وراح يحول بنظراته فيها دون أمل.. صمت طويل ومثير.. وفجأة أشرفت أسارير الطبيب وحقق بعينين مذهولتين متعجبتين.. كانت النتائج كلها إيجابية.. وقد توقف المرض وتراجع.. قال وهو مبهور الأنفاس:

- يا إلهي؟! لا أصدق ما أراه!.. توقف المرض! كيف حصل ذلك؟..

كلمات بعثت البهجة والضياء في وجه صابر ووفاء،

فتألقت عيناها بوميض مشرق. فتمتم صابر:

- الحمد لله.. هذا من فضل ربي العظيم.. ■

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



واحة القراء



السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أما بعد، أحمد الله العلي القدير الذي عرّفني بهذا العلم الغزير والنبع الطيب للدراسات الإسلامية لمختلف المفكرين، ألا وهي مجلة "حراء". لقد كان أول لقاء مع هذه المجلة أن كانت هدية لي من طرف أستاذي التركي. ومنذ تلك اللحظة عزمت إلا أن أتبع هذا الضوء الروحاني الذي يعالج مختلف القضايا التي تمس الروح. أشكركم جزيل الشكر، شكرا لا حدود له لأني أحب مجلتكم القديرة والرائعة.. أتمنى لكم دوام التآلق والنجاح..
محببتكم خديجة / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

أتابع بكل التقدير والإعزاز أعداد إصداركم الجاد المتميز، والتي هي بحق منارة إسلامية ثقافية فكرية لا غنى عنها للباحث أو للقارئ، حيث أنها تمثل بجلاء منهج الاعتدال والوسطية الذي يمثل فكرنا الإسلامي خير تمثيل، فمعكم الله تعالى، وإلى الأمام دائما من أجل إثراء الفكر الإسلامي المستنير.

يسري عبد الغني عبد الله / مصر

السلام عليكم ورحمة الله..

مجلتكم تستحق التقدير والتشجيع.. فجزاكم الله خيرا، وأتمنى لكم النجاح ومسيرة طويلة لخدمة الأمة الإسلامية...

محمد بن الطاهر / المغرب

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..

أتقدم لسيادتكم الموقرة بهذا الطلب، راجيا منكم إفادتي بالأعداد الأخيرة لمجلة "حراء" التي اكتشفتها صدفة عن طريق الانترنت وقرأتها.. وما جذبني إليها موضوعاتها الحديثة ومنهجها الإسلامي وبخاصة مواضيع التربية بحكم مهنتي أستاذ تعليم ورئيس جمعية اجتماعية.

عمار جلود / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أشكركم جزيل الشكر على الجهود التي تبذلونها لإنجاح هذه المجلة المتميزة، والتي أتابعها باهتمام بالغ. مع تحياتي الخالصة، مصحوبة بدعواتي الصادقة لكم جميعا بالتوفيق، وبمزيد من النجاح للمجلة. والسلام.

رشيد سوسان / المغرب



حراء

مركز طلبة نقابة طلبة

www.hiramagazine.com

مصر: ٧ جنيهات • تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤ دولار



الضوء والزيت

ضوء محبوس في مشكاة فانوس، ولولا الزيت المسكوب من زيتونة المولى المعبود...
لمات النور وعمّ الدجور، ولهاوى إلى القاع كُلُّ مُتَغَبٍّ وخَوَّارٍ، ومتعَبٍّ ومُحْتَارٍ...
بينما الأمل معقود، وعون الله ممدود، للصديقين الساترين...
الذين لا يتعبون، وعن السر لا يتوقفون...

ISSN 1306-1879



9 771306 187009 09

www.hiramagazine.com